

مبارك وساط

أعمال شِعريّة

(2017-1990)

منشورات حِبر

أعمال شعرية (2017-1990)

مبارك وساط

منشورات حبر

تاريخ الإصدار: أكتوبر 2021

سيرة وجيزة للمؤلّف

مبارك وساط:

شاعر ومترجم مغربي، وُلِـد سـنة 1955. درّس الفلسـفة حتّى نهايـة 2005.

صدر له، في الشِّعر: 1 - المجموعات السّتّ التي تمّ جمعها في هذا الكتاب، والمذكورة - مع التفاصيل المتعلّقة بها- في الصـفحتين 3 و4 منه (وبالإضافة إليهـا: قصـائد لم تُنْشَـر بعـد في مجموعـة) ـ 2- أخْفِ الأجراس في الأعشاش (أنطولوجيا: 100 من قصائد م. وسـاط، 2021).

(سنة 2018، حصل على جائزة سركون بولص للشّعر وترجمـة الشِّـعر في دورتها الأولى.)

ـ في مجال التّرجمة، صدر له : شَذرات من سِفْرِ تكوينٍ منسيّ، لعبـد اللطيف اللعبي (2004)، نادجـا لأنـدري بريتـون (2012)، التّحـوّل لفرانتس كافكا2014)، الأبديّة تبحث عن ساعة يد، مختـارات شِـعريّة لأندري بريتون (2018) ـ ستُولَد شمسٌ من أهدابك، مختارات شِعريّة لجمال الدّين بن شيخ (2020) ـ دمي الذي يَرشو اليـأس، مختـارات شِعريّة ونثريّة لمحمد خير الدين (2020)...

مبارك وساط

أعمال شِعريّة

(2017-1990)

ويتضمّن المجموعات التّالية:

- على دَرَج المياه العميقة: طبعة أولى، دار توبقال، الدّار البيضاء، 1990 ـ طبعة ثانية: منشورات عكاظ، الرّباط، 2001 - طبعة ثالثة، رقمية: منشورات حِبر، 2020.

- محفوفاً بأرخبيلات: طبعة أولى: منشورات عكاظ، الرّباط، 2001 - طبعة ثانية، رقمية: منشورات حِبر، 2020.

- راية الهواء: طبعة أولى: منشورات عكاظ، الرّباط، 2001 - طبعة ثانية، رقمية: منشورات حِبر، 2020.

- فراشة من هيدروجين: طبعة أولى: دار النهضة العربية، بيروت، 2008 - طبعة ثانية، رقميّة: منشورات حِبر، 2020.

- رَجُل يبتسم للعصافير: طبعة أولى: منشــورات الجمــل، بــيروت-بغــداد، 2011 - طبعة ثانية، رَقميّة: منشورات حِبر، 2020.

- عيُونٌ طالما سافرتْ: طبعة أولى: منشورات بيت الشِّعر بـــالمغرب، الرّباط، 2017 - طبعة ثانية، رقميّة: منشورات حِبر، 2020.

I

على دَرَج المياه العميقة

طبعة أولى: دار توبقال، الدّار البيضاء، 1990. -طبعة ثانية: منشورات عكاظ، الرباط، 2001. -طبعة ثالثة، رقميّة: منشورات حِبر، 2020.

رَفيف أجنحة يُضرم حقولاً

حين تندلعُ حُمَّى الأخْيِلة في ثُقوب الليل، أنصِتْ للهسيس المنبعث من أعشاب عقلك الذي ينتظر إشارة المُرور إلى ضفَّةٍ مأهولةٍ بالدُّوار. تسمع هينمةً في مرآة تعكس ظلالاً؟ إنَّه المجنون يُقلِّد عظاءة روحه. لسانُه فلاةٌ يرقص فيها الحجر. شرايينُهُ تَجْأر بالشَّتائم والهديل. يُفكِّر أنَّه نبتة قُرَّاص، أنَّه غيمة...

حين تَعبرُ فراشاتُ السَّهَر أمام عينيكَ اللتين تتجاذبان لُغزاً قادماً مِن جُزُر أَحلامك، تحسَّسْ صَدْرك الذي تَرتعُ فيه فُلول الكلمات. رَفيفُ أجنحةٍ يُضرم حقولاً، في مكانٍ ما من هذه المَتاهة، والمجنونُ يَتمدَّد تحت شمسٍ من صُنع أسلافه...

حين تُومض في قلبك موسيقى البراري المُوحِشة، ستَقطفُ فاكهةَ نومه مِنْ جَنائنَ مُضاءَةٍ بِالهذيان.

تفاصيـــل الدَّهشـــة

الأنوارُ شاحبةٌ على سيقان الليلك

الخُطى مُحطَّمة على بلاط الشوارع

الأمواج ساكنةٌ في جنبات الحدائق

لا شيء تغيَّر

بعد أن هجرتِ هذه النَّافذة

حيثُ يضحكُ العصفور

هذه الغرفة حيثُ نظرَتُك

ورنينُ أساورك

شالُك، وآهاتُك التي من بنفسَج

ما تزالُ منثورةً على الشّراشف

المكتظّة بأنفاسِك

وفوقَ المنضدة المبقّعة بالحِبر

حيث يُقهقه بوقاحة

تِمثال بوذا المترهّل

للأسفِ لم أستطع أنْ أبدوَ يائساً

مثل نَشيدٍ ناضب مثل جدولٍ هرم

لأنَّ تفاصيلَ الدّهشة تمَّتْ خارج حياتي

لأنَّ أنْفاسي تتلعثمُ في العراء

فيما الثّلج يتساقطُ من سَقف الغرفة

ويلعب في حضني كطفل

لا شيء تغيّر

هيْنَمة الوزّال تَسري في المروج البعيدة

والسَّماء تنثُّ رذاذ الهذيان

وأنت تتخلَّصين من دمك وتَجرين

بين أشجار الصّنوبر المريضة

وعلى الأرصفة التي تَغصّ

بعذاب الموسيقى.

كان قوسُ قُزح يتزحلقُ على كَشْح هَضيم

والزَّبَدُ يكرّر أحلامَ المحيط

كانت أحلامكِ تتبعك

وأنت تتلذَّذين بالهمس وبالكلام

وفي منتصف العبارة تختفين

تاركةً طيفَك في المرآة

تاركةً هُمومَك الصَّغيرة على عتبة الباب

وجهَك في بدايات النّهار

وثوانيَك الزَّرقاء

في قلب السّاعة الذهبي.

لا شيء تغيَّر

رعشتُكِ تنسرب في خروم الدَّنتيلا

خوفُك ينسدل على جبيني

وأنا أبتكرُ سيرةً لوردٍ عابر

قبل أن أضعَ يدي على مفتاح العلاقة

ورأسي خارج رواق البهجة

قبل أن أَغمس عينيّ في لُعابِ الوسادة

المُرضَّعة بنومك وعِطرك

وأُنصتَ لطحالب المُستنقعات

وهي تنمو بين ضلوعي

في هذه الغرفة الكئيبة

كابتسامة القتيل

حيث الوقتُ دائماً

منتصفُ الليل

حرائق

كَمْ جَهَدنا لنرسمَ البسماتِ على شفاهنا الكئيبة، وحاولنا أن نُنصتَ للضَّجة الخافتة في قعر الجرار، لأجنحةٍ تَنتفضُ في كوابيسنا، وكثيراً ما جلسنا بين الخرائب، في الأماسي المنخورة بالحكايات الطّائشة، عيونُنا تترصَّد خُطى السَّاعات، وفي أفواهنا تَنمو أغصان الليل المتقيّحة. كَم شُدِهْنا ونحن نسمع المياهَ تُدمدم، ونَرى أقماراً معتوهة تسقط في أُحبولة الألم، والعانسَ التي تنسج الرَّايات، والرُّعاةَ إذْ ينطفئُون كشموعٍ في البرد. كم ذَرفنا من دموعنا الخضراء، ونحن نسمع تلك الطِّفلة المشنوقة بحبال الأفق تُكرِّر كلَّ ليلة: "جميل من النُّجوم أنْ تَكشف عن أسنانها الذَّهبية لِعُيون المسهَّدين. جميلٌ من الثّلوج أنْ تَقْضيَ وقتها في أكفانِ صَمتها. جميلٌ من الفَلوات أن تُلقِم أثداءها للمرضى اللامرئيين...."

أحياناً، ننسى كلَّ هذا. نجلب الحشائش وننثرُها على الأرائك. بإِبَر الضَّوء نَخِزُ جِلد الغسق. نَضعُ الكؤوس في الزّوايا. نُعَلِّق الكراسيّ إلى السَّقف. نُوَقِّع خُطانا على شطحاتِ نهرٍ مجنون. ثمَّ نَستكين، في انْتظار الحرائق الموعودة عند الفجر.

أمـاكـن

في شارعٍ جانبيّ

وجهٌ أليف

يتكاثر في انتظاري

في ضاحية قريبة

قبيلةٌ تُقيم طقوسَ نَدمها

في ميدان المعركة

سقط ضحايا كثيرون

تحتَ حوافر الأصيل

في ذاكرتي

مدنٌ تهمي عليها

أمطار وأحزان

في غابة ما

امرأةٌ تقبِّل ذئباً كسيحاً

على رصيف مقهى

قَمرٌ ينزف

في سُرَّة ميت

على عتبة غابة

هياكلُ عظميَّة

تضحك للنُّجوم

في كوخ مهجور

أنام متستِّراً على صيحتي.

شُرْفــة

رنينُ عضلات الليل المعدنيّة، ضجيجُ النّهارات المُتقيِّحة، رصاصاتُ الليل والنّهار الطائشة، الرَّماد: ذاك ما تعرفه أيضاً أفواهُنا. من هذه النُّقطة انطلقتُ. وها هي تتدحرج الآن نحو النُّقطة المجاورة، حيثُ جلس رجلٌ بهيئة شحّاذ. أطلق وابلاً من الشَّتائم، قاصداً لا أحدَ، رُبَّما. شرب نشيداً من الدُّموع في أقداحٍ مَكسورة. بَكى تحت شُرفةٍ تَأوي إليها امرأةٌ كانت حبيبتي. رَقَص على الجَمر، وعلى نغمات النّاي. وهي من شرفتها، ترعى قافلة التنهُّدات التي تحجّ إلى مَهبلها، وتمنحُني عند اليقظة كأسَ نبيذٍ وعُشبَ الأعماق... إنّها تُكرّر: "كتيبةُ جِراح تُدندن في ساحات قلبي."...

"على الشِّفاهِ أيضاً، تتفتَّح وُرود الدَّم في الفَجْر..."، تَهْذي جُمجمةٌ في إحدى الحانات، فيما تُصْدر المومياءُ أوامرَ للقناني الفارغة بالتَّسكُّع في المزابل. حتّى إشعارٍ آخر، يبقى كلُّ شيء هادئاً.

مُــــراوَدة

اِفتحي فمك قليلاً

وَلْتُوقِظْ أنفاسكِ عينيّ

من سُباتٍ

أمنحه لطائر

ها أنذا أفتح ذراعيّ الآن

لأمنحَكِ نبْضَ الماء الحيّ

ظلُّكِ يجوب ضفافاً بعيدة

وظلّي الذي يَتبعه

سقط مُهشَّماً

على إفريز الصَّباح

لكنَّ نيراني دائماً تدعوك

عليكِ بتلمُّس الجَمرة.

أَصْفِقُ نوافذ النّوم

حدثَ ذلك بِمحض الصُّدفة

أمام الجُمجمة المرسومة على جِلد الليل الأبرص

ينسجُ الموتُ في حدقتيها حبكتَه البارعة

من أليافٍ، من بقايا صباحات ذاوية،

أمام قطرةِ الخمر المتشبثة بحافة الكأس

بيأسِ حيوانٍ فقد ذاكرته في معركة غامضة

بين الحُلم واليقظة،

أمام عينيَّ اللتين نَمتْ فيهما

أعشابُ الكوارث الأليفة

وأجنحةٌ سوداء

ترفّ كلَّما بدأَتِ المصابيح في الهديل

باسمي حين أَصفِق نوافذَ النَّوم

وأمشي على شفرة الواقع نحو اللهيب

كانت الأقمار الواجفة

تتسلَّل من فتوق الأساطير

ودمُ الأشجار يُدثِّر ظلالَ المهاجرين

كانت الثُّلوج، في رئتيّ، سادرةً

في أنينِها

تُفتّتها أحزانُها

كالعادةِ التي أسدلَتِ السَّتائر

على مشهدٍ أبدو فيه بمحض الصُّدفة

مُغْرقاً ضَجري في جدول شتائم

أحفظُها منذ الولادة

تميمةً أُعلِّقها على صدر يمامة

أو امرأةٍ في آخر الليل.

حدثَ هذا بمحضر امرأة آخر الليل

التي تركت شيئاً من روحها

في فمي المُثقَل بصرخة

تنطلق دائماً في اللحظة المناسبة

لِتُحطِّم الجدار الذي تحتمي خَلْفَه

الرَّايات من الصّفعات

والرُّضَّع من نُباح الساعات المريضة:

بمحض الصُّدفة سقطتْ دموع الغراب

سقطت الأغصان الحمقاء في شَرَك الريح

ارتجفتْ قامة الفجر من شدَّة الخوف

لم يعد بابُ الغرفة يؤدِّي إلى الخارج

صار لا ينفتح إلا على النَّعيب

سقطت طيورٌ نادرة في عَباءة البحر

سقطتْ خُطاي تحت وطأة الموسيقى

سقطت عيناي في شحوب

الياسمين...

«كان متأجِّجاً، ذلك الهيكل العظمي»،

قالت النُّسور

ومن جِراحي تطايرتْ

فراشات زرقاء...

إذَّاكَ بدأ جنودٌ من زَبد

يُطلقون النَّار

على قوافل الأيَّام.

مساءات ماطرة

مساءاتٌ ماطرة

حُطام الثَّرى المبتل

يَرِفّ على قدمِي

ورمادُ الأزقّة

يَلفُّ عُرينَا وخُضرةَ الشَّواطئ

كَكُلِّ مساء

نَمخر عباب الوهم

نُصغي لهُتاف الدَّم

وإذْ أحضنُ خَجلك بأصابع عمياء

نقضي الليل في الرحيل

بين الخطوة والخطوة

أنقاضُ حلم...

قبـــــر

مرّةً أخرى، تَبذر دمك في أرضٍ مُجدبة. تَطفو على صفحة حياتك كقطرة زيت تائهة أو ككائنٍ غريب لم يسبق أن رآه أحد. عُواؤه غيرُ المسموع يصبغ الهواءَ بزرقة جنين وُجد مرميّاً وسط القمامة ذات صباح شتائيّ (يمكنكم تصوّر ذلك بسهولة). التّحرّيات في الموضوع أنهكت العذارَى الرَّاكضات في الأسواق وعلى ضفاف الأنهار التي تُسافر إلى مكان مجهول (ربَّما هو الجحيم). الخُوذ تترنَّح بين الكروم، تستقلُّ القطارات، تستنطقُ الأجيال القادمة. المهمّ أنَّهم لم يمنحوك – أيُّها الكائن الغريب – أيَّ اسْمٍ حتَّى الآن. لم يمنحوكَ ولو تلك الزَّهرة الكَليلة التي تُجهش في مستنْقَع، أنتَ الذي تبذر دمكَ في أرضٍ مُجْدِبة.

أشجارٌ غجريّة

إنَّه الليل، أُطفئ آخر المصابيح

كي تُولَدي، وتبعثي تحت لسانك

الأخضرِ شبابَ الرِّياح

وأحلامي المدفونة في الحدائق

عوسجٌ يتهدَّل تحت جلدي، يُولَد من غيابك

صَمتي يُحاور ظلالاً

نشيجُ أصابعي بألوانه القُزَحيَّة

يتسلَّق أبراجاً عالية

حيثُ تغسل بقايا الأمواج

عظامَ بحّاري الفيَضان الأخير

قلتُ: لأجعلْ من أنفاسي رُقْيَة

ضِدَّ تَصدُّع أحلامك الطَّرِيَّة

واسمُكِ بين شفتيَّ جدولٌ متوفِّز

حُلْمُه أن يُغرقَ قلق الوعول

في لُجَّة من ضياء النَّشيد...

ها هي الأشجار الغجريَّة

تُخلِّف جذورها وتَهيم في البعيد

هنالك، ليس للشّمس ما تمنحه للنَّهار

غير نظراتٍ دامية ليس للَّيل إلَّا

اللهاثُ الحالك للحقول والمرضى!

ها أنا ُشعل لفافة ثمَّ أخرى

وأنتظر

ها أنا أُعلِّق تميمةً من الضّحك

على قفا بُركان!

خلف نافذتي...

خَلف نافذتي المرصَّعة بالبروق

تقصفُ أجنحةُ الفجر

نُجيماتٍ وليدة

في الحُقول المُنهَكة

حيثُ تتناجى بُقَعُ دَمٍ وأزْهار

يرسم بحَّارٌ مسلوخ

أشرعةً ومجاذيفَ

على صفحة جِلْده المتهدِّل

ويُحَدِّق عرَّاف بعينيه الزّجاجيتين

في غُضون إلهٍ مُحنَّط

بينما يتدلَّى جنديٌّ

باسماً من المشنقة

أولئك أَسْلافي

وما عادوا يتعرَّفون عليَّ

لقد قَصُرَتْ قامتي حقّاً

بسببِ الصّباحات الشّاحبة

التي تضغط على كاهِلِي

عند اليقظة

لستُ متوجّساً من هذا

فما دام قلبُ المرآة ينبض

ثمَّة أملٌ كبير

في انبعاث الشِّفاه من رمادها

إذَّاكَ ستينَع القبل

وتستمتع عظام الموتى

بغناء النَّمل...

أتنصَّت لأشْجان موجةٍ يتيمة

بعد قليل أخرج للتّجوال

سيكون لركبتيَّ شكلُ شعلة

أنا لا يُرعبني لُعابُ الفوانيس

ولا سُعال الذِّئاب

خلف الواجهات الأنيقة

لكنْ أَخْبِروني

لماذا يتدثَّر المرضَى

بمعزُوفة الرِّيح

وأين هي سُرَّة الصَّحراء

الحنجرة تنتظر

لحظةَ نُضوج الصَّرخة

الجرادة تتأوَّه

على قِمّة المدخنة

هنالك مفاجآت كثيرة

في جنبات المدينة:

لقد شُرِع في صَلب النّادل

أمام المقهى

لقد تساقط ريشُ سنونو

على كتفيَّ الحالمتين

أنا رأيت ممرِّضِين عُراة

يُجلَدون داخل كهف

ومساءً يُوضَع

في تابوتٍ من غبار

وزوجين سعيدين حقّاً

لهما ذرِّية من فلّين

وها أنت يا ذكرياتي

تتزحلقين

على ثلوجٍ

من حَرير

مُعـــادلات

ساهماً، يُنصت لوقع أقدام الحرَّاس في الرِّواق، حيث تغفو تماثيل أسيرة. باردةٌ ضلوعي اليوم – يقول باسماً – كعطرِ الأرض القابع في محاجر الموتى. كعينِ الشَّاعر المدخِّنة، ودموعِ الفلكيِّين القُدامى. كان مُؤَرَّقاً بِهموم فجر كَسيح، بوحشةِ مَوطن الصَّيحة والقُروح. وسمعَ ثُغاء فزَّاعات مزروعة في خاصرة الخريف. أشجاراً تُجفل من كوابيسها، أنهارًا تفتح غرفها السِّرية للأرامل... بدأ يكتب أرقاماً ورموزاً. عن مِروحة هاربةٍ من السِّجن. عن انفعالات الحِبر. ضحكِ المومسات المُتبَّل. عن معاناةِ أجراس الليل وسُمكِ كلمة جدار.

كانَ مُؤَرَّقاً بموطن الصّيحة والقروح.

على رصيف مقهى

لا أحدَ من بينهمْ كان في حاجةٍ إلى الألم.

أهازيجُ غامضة تتردّد في حَناياهم، فيما تهبُّ أنفاس متقطّعة من ناحيةِ التِّلال. عصافيرُ شاردة تَسقط بين الفينة والأخرى في عُبِّ المرأة ذات الوجه المُطرَّز بالثُّقوب. والغُيوم الورديَّة الثلاث، والتي هي قواربُ مُتْرَعةٌ بِنُخاع الكواكب، يَدفعها النَّسيم نحوَ شطآنٍ آهلةٍ بالأجنّة. الجنديُّ الوافد عبر مفاوز موحِشة، يُطارد في المرآة كلباً أجْرب. أحدُهم يحاول أن يقولَ شيئا من دون أن يحرِّك شفتيه. أحدهم يتحسَّسُ عظاماً تتفتَّت في جيبه. صبيٌّ مجنَّح يتوقَّف قليلاً عند كلِّ منضدة خلفها رجلٌ جريح. ثم يُفرد أصابعه المخمليّة قبل أن يختفي في الضَّباب الكثيف. والأعمى، النّائي عن الآخرين، يَغوص في مياه وحشته، أهدابُه مُسْبلة على صرخات وبروق...

لا أحد من بينهم كان في حاجة إلى الألم.

مرثيَّـــة

كان قد نسيَ كل شيء: قبعته في الدُّولاب، ذكرياته على طوار مهجور، وجهَها في نهاية قصيدة قديمة، سترتَه في سرداب، أسماءَه في دفاتر الطفولة... تمدَّد فوق بساطٍ من رماد، وحوله أحجار ترنُّ في القيظ وأنيابٌ مبقعة بالدَّم... في المستنقع القريب، كانت الطَّحالب هامدةً وقد أَنْضاها الحنين. ولم يكن هو ليلمحَ شيئاً من كل هذا. ولا الهيكلَ العظمي الذي يشتعل على هضبة. ولا ألسنةَ الخريف التي تهذي وتتهرأ...

خيبةُ الصّباحات الكالحة غرقتْ في لُجَّة ضحكه الهادر.

خيمةُ الغبــار

مِن جديد، بدأَتِ القوارب الكاسرة تَخيط بِمِسلّاتِها الذّهبيّة أفواهَ الأنهار، بينما الخريف يَنسج علاماتِ استفهام على وجوه العابرين! نبوءاتٌ وخِيمةٌ أستشفُّها في عيني يمامةٍ تُحتضر، وأخبارٌ غامضة تبثُّها إذاعة الزَّبَد عن مصيري الأكثر غموضاً. أحياناً، أُقيم مع سَدنة العُشب في ظلِّ أساطيرَ سامقة، بينما تتوغَّلُ أنفاسي في فَجوة الجبل العميقة، أو أمضي إلى كهفٍ بعيد، أرى فيه العلماءَ المُقْعَدين يَفكُّون ألغازَ سَيْر الحقول. كنتُ، أيضاً، أُجالسُ صديقي الذي يشتغل بمنجم الدُّموع السَّوداء، لنستغربَ قليلاً من طُفولة النَّيازك وبُكاء الحجر اليتيم. لكنَّ القنَّاصين الدُّهاة كمنُوا له ذات مساءٍ في خَيمة الغبار. ومُذَّاكَ، صرتُ أتطلَّع إلى كلِّ هَيْكلٍ عَظمِيّ يُدندن في حانة، وكلِّ ميِّتٍ يُحمحم تحت نافذتي، إلى أن نسيتُ ملامحَه كلِّيةً. بقيتْ دماءُ السَّنَاجب تَزورني. وساعي بريد المَرارة، الذي كان يحملُ لي رسائلَ على هيئة سلاسل، وبطاقاتِ بريدٍ تسعُلُ فيها الغربان... وطلع حرّاثو الأمواج الخِصبة، من أكواخهم في عمق المحيط، ليقوموا بمسيرة احتجاج من ساحة الألم العظيم حتى مقرِّ إقامة العَظْم المتلألئ. جاء الرُّعاة العميان أيضاً. وحُروف الجرّ المعذّبة. جاء حرّاس قوس قُزح. وأناسٌ عديدون وغلايينُ سُودٌ كأنَّها من شُيوخ بني حام... ومضتِ الحشود

على ضِفَّة النّار، ضاربةً في أرض الوحشة الزَّرقاء... في ذلك الوقت، كانت الأزقّة الخلفيَّة تتلوّى على أعناقِ الذِّئاب، والمطرُ، مُشعَّثاً، يتقافزُ على إيقاع قَرْعِ الطُّبول.

عصـــافيرُ سكْرى

ثمّة حانةٌ أُنادم فيها أشكالاً هُلاميَّة، تَرْقبنا عيونٌ لموتَى، وهي لا تزال تنبِض، منسيَّةً في الكؤوس وعلى المناضد. زفيرُ السَّاعات يَنْكأُ جراحَ حكايات غامضة، بينما تبحث قطرةُ خمر وحيدة عن معنىً للحياة داخل حنجرة سكِّير. الجنود الذين حاربوا في السَّراديب وعلى أرصفة المقاهي يُصَوِّبون بنادقَهم إلى قلب تمثالٍ يترنَّح مُعربداً. والطِّفلةُ التي تَهْجع منذ لحظات، تحلم بعصافيرَ سَكْرى تَنقرُ لسانَها الورديّ. على عتبة الباب، يقف شحَّاذٌ باسماً، فيما تتسكَّعُ روحُه بين صناديق القمامة، بحثاً عن قنانٍ فارغة. "أنتَ شجرة مأفونة، أنتَ غيمةٌ مُخَدَّرةُ الحواسّ، ذَرَّةُ رَمل تَبْكي في أعماق المُحيط..."، يقول النّادل المقنَّع للكهل الذي يعملُ ساعيَ بريد بين النّجوم. لكنّ هذا الأخير كان يغطسُ عمودَه الفقريّ في دَوْرَقٍ من نبيذ بابل، ويُفكِّر في عذاب البشرية الذي يَتمرأى في شاشة صمته العنيد.

أُعيدُ تكوين المشهد، فأرى وجهي مثقلاً بكلمات ذابلة. كلماتٍ، أنفاسي ستسحبُها خلفها إلى حيث ترتعش عظامُ البحر... لحظات وأمضي من شارع إلى شارعٍ يُطارد خيولاً غريبة، وهي تهرع نحو بَرارٍ مُدَثَّرة بِغَسق الكحول. لحظات وأجلس إلى منضدة مِن زَبَد، لأُنْصِت إلى أقمار شاحبة وهي تَبذر كآبتها في كأسي الأخيرة...

أحلامٌ تُهدهد أزهاراً

ككلِّ مساء، يرى الطُّيور المراهقة

تتملَّى صُوَرَها

في مَرايا البحر، ونصالَ

الشَّمسِ تحْتزُّ أعناق سُحُبٍ

في هيئة ذئاب

يرى السَّاعات الرَّتيبة

تأكلُ قمحَ عينيه

يَذْكر أنَّه كلَّما قطع أنهار

النّوم الشَّاسعة

في سفينة الأجداد

استيقظَ في غابة تضجُّ

بهديل طفولته المُرصَّعة بالنَّيازك

بزئير شجرة أكاسيا

لها رأسُ نمر عجوز

كانت قدماه تمضيان

على أسلاك الوجد الشائكة

يداه تتلمّسان جذورَ الغواية

وكانت النَّار الفتيّة

تحنو على جبين الثلوج

حين أضاءت الطّرائد ليلَ

الغرباء بقناديلِ دمها

بدأتْ أحلامُه تُهدهد أزهاراً

تَيْنَع سرّاً في حَدقات المروج.

نِمـــالٌ تهزج في رئتيّ

مُبهمةٌ هذه الحقائق التي ترسمها الغربانُ على شاشة الرُّوح. مبهمةٌ نوايا الرِّيح التي تنصب الفخاخ لقدميّ، وهما تضربان في أرض البلوى والجُرح، حيث تتدحرج رؤوس العنادل على بساط أنفاسي القديمة... أتركُ الظِّلال الوارفةَ لآلامِ نَورس، وأمضي للعمل في مكاتب الرَّمل، كي تَسخنَ عظامي... مرَّةً واحدة، سَيَنفثُ فمي أنقاضَ الليل ومراياه اللعوب، أنا الذي تركتُ وجهي رهينَ أهدابها: هي الطَّالعةُ من بئر الزمن السّاجي. العابرةُ من المقهى إلى الهديل، ومن الهديل إلى غُرفتي التي تَجلدها شُهبٌ فتيَّة. وحقيقةً توجَّستُ منْ كلِّ تلك الغُضون التي ظهرتْ على الجُدران. وكلِّ الثُّقوب التي برزتْ في الشراشف والأحذية. من البُثور في وجه ملاك حيَّاني وصار رماداً. من أنين الجُلَّنار في حديقة صمتي. من صمتي في سرير الهاوية. ومن الهاوية نفسها. ومن نفسي. ومن أنفاسها، حين تَمزج الماءَ بالحُمَّى وتعبَثُ بالأعشاب اليائسة قرب رأْسي. قلتُ: "الأنهار منفيّة من مهد أحلامها". وقالت: "سربُ دموع يحطُّ على نهدِي. أنصتْ لهذه الموسيقى التي تنبثق من عيون الباب...". يُمكنها أن تستمرَّ حتى يتهرَّأ أديمُ الكلمات. سأبقى متنصّتاً للنّمال التي تهزج في رئتَيّ. مُبهمٌ دبيبُها في شراييني، كرفيف أجنحة الموتى.

بدأتْ هذه الثُّلوج تصدأ

أقفُ تحت نافذةٍ تتردَّد خلفها شكاوَى عَجزة ومتسوِّلين يتقاسمون خُبزَ الملاحم القديمة. أقفُ تحت مطرٍ يقضمُ نهدَ عذراء تركض في مفازة العذاب، خلال هذا المساء الذي يرْفُل في فساتينَ من عوسج. طواحينُه تُفتِّت عظامَ الملائكة. وأنا الذي استهللتُ هذا الإعصار الجميل، لا أرى على شاشته إلا أقدامَ الموتى، مغروسةً في صناديق القمامة، تتشمّمها الذئاب... بدأتْ هذه الثُّلوج أيضاً تَصدأ أمام عينيَّ اللتين كانتا يمامتين سجينتين، وجَلَدهُما أقزامٌ كانوا لا يُغادرون بطونَ أمّهاتهم إلا خلال أعياد المُجوس. نيرانُهمْ تتثاءب على وسادتِي كلَّ صباح. دموعُهم تَصهل في محجريّ، فيما أصنع حماقاتٍ مُشِعّة من رماد الأيّام، وأترصّد أبواباً تُهرول بأقدام آدميَّة، منها سأدلفُ إلى مدن الماضي، مُنقسماً في جُسوم كثيرة. قد يكون أحدها هذا الشحّاذ الذي يَغفو في محارة بِحَجمِ خرائبِ عُمْره الطّويل. ومثلما يندلع شَبَقُ النّار في قشّ صيف جميل، سيأخذني الحنين إلى ساحاتٍ مكتظّة بالمهالك، حيث عُميانٌ يَسْحَلون وجوهَهم المنطفئة، إلى مرافئ تَرسو فيها سُفن مُحمَّلة بقلوب الأرامل، إلى سريري الذي أمضي إليه عبرَ جسور سبعة، تتمدّد على كلّ منها امرأةٌ تفتح لي ذراعين من غبار... وحين أصل إلى نقطة انطلاقِي، أَضــيعُ في متاهةٍ من الضّوء، نشيداً في فَم العاصفة.

II

محفوفاً بأرخبيلات...

طبعة أولى: منشورات عكاظ، 2001. - طبعة ثانية،

رقميّة: منشورات حِبر، 2020

ديــبـــاجــة

بأشرعة من شرار وإلا

فبأجنحة الألم، فحسب

يُمكنني أن أُوغِل في الفجر الخفيف

حتى مصبِّ أنهارٍ

تَهدر بالأحلام.

أبـديَّـة

وكأنَّها الأبديّة

محمولةً بين مخالب نسر:

كلُّ هذا البياض

المُدَمّى

وكأنِّيَ الامتدادُ الحيّ

لزوبعةٍ

غامضةِ

النوايا

أَأَلتفعُ بِحرير الشمس

وأُصيغُ السّمع

لهذا النَّدى الذي يَموء

في حِداق

الخُزامى

أأخْذُو النَّسيم

إلى مسقطِ رأسه

خلال هذا النَّهار

الأكثرِ خضرةً

من كارثة

أم أبقى في هذه الغرفة

النَّظيفة

إلا من دِماء الأحد؟

رَحــيــل

حينَ سالتْ على جبيني

دماءُ الغَسق

اِعترتْنِي رعشةُ اللحظة العَمْياء

انسحبتْ يدايَ

مِنْ طُفولةِ الذَّهب

وبدأ وجهي يُسافر بلا كَلل

نحو مهابِّ الألم.

هــــامــشٌ لصهـــــيل فنـــار

هُنا، تَحت أهدابِكِ أيَّتها الرِّيح، وأنت تُفكّـِـكين دَواليبَ الظّهيرة، وتنثُرين المفاتيحَ على صَدْر الميِّت، حيث ينضُجُ الصَّمت، ثم يَنسَلُّ ثَخيناً إلى خياشيمنا،

تحت أهدابك، تخلَّصنا من خُطانا الفائضة عما تُحبِّذُه الطُّرقات، وَمِن الصَّدأ العالقِ بسجلَّات أنفاسنا. وَأَدْنا النَّغمات التي استخرجنا من عويل العربات، وتشمَّلْنا بنجيع الوقت. وإنْ لم نحضُرْ دفْن آخر نهار قتيل، فإنَّ أفواهنا تركتْ هامشاً لصهيل فَنارٍ يُضيءُ طريقَ المراثي.

لم نكن قط أدْعياءَ إزاءَ مشاعر العنكبوت. نحصدُ سأم القمح، وبِكوابيسِ الينبوع نغتسل. وليس بيننا من أوقع الضَّغينة في قلب الصَّبيحَة التي مزَّقتْ نسيجَ سُهادِنا، نحنُ المُقْلِعِينَ عن معاقرة وسواس الخيول! وإذا السَّنابك تجتثُّ صفير الحدائق. واللقالق تَقضم لحم الدّقائق. وأهدابُنا تقذف شرارَ اللبلاب. يَا ما صادقْنا السُّهُول المتأنقة. يا ما تأوَّد قدُّ الغواية في أروقتنا، بين مرايانا وخطايانا. وحتَّى حين بدأت فراشات نزقة تُربِّي في آذاننا عواصفَ وليدة، نحن لم نيأس. نرى إلى أرضِنا الحيزبون، المُعلَّقة من شَعر عانتها بأسلاك لا مرئيَّة. نتعلَّم منها الصَّبر.

أقبــل الفجـــر

أخيراً،

أقبل الفجر جريحاً، وقد حرَّرَ أجنحته من أصفاد الخُرافة.

وقتها، سال الفرَحُ، قانياً،

من أنوفنا التي ما عادت

تتعرّف علينا.

لسنا وحدنا الحيارى!

أُمسيـــة

طُول الوقت كان الموسيقيّ

يَعزف بحركاتٍ تُشبه

تمارينَ المطر

والبهلوانُ يترنَّح في الأعلى...

لم يكن أحدٌ ليرفع عقيرته

لم تكن كفٌّ لتوقظَ الأشجار

المُسرنِمة في المرايا

على جُثَتنا الطَّافية فوق لعابها

تناثرتْ بِدافع الشَّفقة

وُرود الشَّفق

وبدا الحُضور سَاهمين

فهم، لا شك، يُفكِّرون

في عذاب المذنَّبات، التي،

بعناية، تحرسهم...

أنا، أيضا، فاجأتني

لحظةَ شحوبِ الباب

كلُّ تلك الطيور التي

بدأتْ تهزج

في مُنعرجَات مصائرنا!

غرقى

كثيراً ما نقضي اللَّيل

مُوَزَّعين على السَّواحل

نُداهم الأعياد المسترخية

في قواقعها

وبأجسادنا

نمسح عن الصُّخور سقمها

نروي حكايات بمكبّر الصوت

كي تلتقطها آذان الغرقى

ونقتادُ الفجر الضرير

عبر أروقة بيوتنا اللامرئية...

...ولِـنُـزَجّي الوقت

نجتلب أصابعنا الذابلة

من سهوب الأنين

ونغرز إبر الساعات

في جلد الذكرى

فتُشعُّ بوميض الألم

عيونُ الطّحالب التي تَسهر

في محاجرنا، نحن

الغرقى.

مُهمَّـــة

اِنتخبتني الليالي

لأَشْتار عسل الكواكب

المُتَدلِّية

فوق رؤوس الغواني

لِهذا، "لا أذوق النوم

إلا غِرارا".

طويلاً عِشْتُ كَما...

طويلاً عِشتُ كَما

لَو كُنت نَهراً لا يكفُّ عن

الهدير

نهراً لا يُبالي

إنْ عاشَ أو انتحر

كنتُ أقرعُ أجراس الفوضى

في الطّرقات

وأَجلسُ إلى موائد الدّوار

في مقاهٍ

تَؤمُّها البُروق...

ثُمَّ وجدتُني، ذاتَ فجر

جاءَ مُبرقَشاً بأنينه

أرْعى سِرب كوابيسَ وَرْسَاء

في سُهوب السُّهاد

وكنتُ مِن بين الفرسان

الذين نادموا ظِلالهم

على قليلٍ من الوسواس...

أمسِ مساءً

كانتْ سُحب مُشاكسة

تكسو رأسي

بِسُعال الأبالسة

وبعد أن تسلَّلْتُ خِلسةً

من بين أسنان الطَّقس

مضيتُ لِأَتيه

في الأزقّة الخلفيّة

للحياة

مـسرّة

جاءها مخموراً

ليسرُدَ على عينيها

نُعاسَ اليمامة التي تحيا

في صندوق من طلّ

جاءها ولم يُصدِّق

أنّه أفلت من أشراك الرَّمل

وكمائنِ المصادفات

وأنَّ خيولَ الشَّوق المُجنَّحة

التي حملتْ على صَهواتها

قُرىً عديدة

إلى مَجرَّاتٍ بعيدة

هي التي أنقذَتْه

مِنْ فَحيح المسافات

جاءها مخموراً

في عينيه هلوساتُ

السُّهْدِ والتّرحال

ومعها أقام تحت مظلّة الهديل

محفوفاً بأرخبيلات

ولم يحزنْ أبداً

لَدى سماعِهِ الأغصان الجريحة

تَلتفُّ على قلبه العاشق

هو الذي جاءها

مخموراً

نـــار غريبـــة

إذْ تَسعل السَّاعات

مُحتقنةً بسُــلّ قديم

ويُدمدم جدول

حاملاً جنونَه على جفونِه

يُؤجِّجُ، هو، طنينَ عظامه

ثم يرحل

مُلوِّحاً بِمناديل البراري...

أقمارُه تتلألأ على كتفيْه

ونحن نتبعه، لِنكتشف الآثِم

الذي آلمَ الغابة

الذي دلّ العدوَّ على كهف بعيد

تتحصَّن فيه ذكريات الخيول

نتبعه، لِنعثر على موطن البيلسان

المُزَنّر بدموع زرقاء...

وهو يرحل، مؤَجِّجاً طنين عِظامه

مظلَّلاً بأنفاس العقبان

إنه شاعر، تخفُرُه

صيحتُه الأولى

حلمُه أن يجمعَ

من سراديب الفُصول

أسناناً جميلة

تَصْلح لأفواه

الموتى.

بــراءة

الرَّجل الذي قضى ليالي طويلة

مُوغِلاً في شُحوب الحديقة

لم يَسرِقْ نياشينَ الخُزامى

وليس من جدَع أنف الهواء

لم طاردوه إذن؟

إنه يتخفَّى الآن في مغارة

يَحرسها هتاف النَّمل

لا يغادرها إلا مُكرهاً

إلى مفاوز

يُسدل عليها الأموات

أكفاناً راعشة

لكنْ لا خوف عليه

حين يَجوع

يستطيع أن يجلس

إلى خِوان النسيم

وإذا تعقَّبته العقبان

يُمكنه أن يمتزج بالزَّبد

لا خوف عليه

لهُ خيمة

يستريح فيها حواريُّو الرّيح

حين يتعبون

حَـاشيـــة

أنفاسُ الصَّيف تتمترسُ خلف ضحكة الجبل

زَغب الضوء يتناثرُ، حُمَّى من الأَلق

قريباً مِن الهاوية الزرقاء

ثمَّة بحرٌ في سَمت ملِك

حوله حاشيةٌ من الغرقى

وجنودٌ يَخِبُّون على الثلوج

يخوضون حرباً صغيرة

ضِدَّ فيلق من النَّوايا:

بِلا مبالاة، تعبر الريح فوق المشهد.

ذِكْر مـــا جرى

كانتْ مناقيرُ الدَّقائق

تنقرُ رِدف امرأة بدينة

كَلبُها الصَّغير الْتَفت

وأثنى على الهواء الطَّلْق:

عينُ النهار كشَّرتْ!

ذِكْرُ ما جرى (2)

هي ذي شمسٌ يبدو عليها الذُّبول

وأَمارات الضَّياع

ذلك أنها تتملّى

بعيونِها التي تحترق

إعصاراً يتنصَّت على بَوح الأشجار

ويلعقُ دِماء المروج

بألسنة الذِّئاب.

كيْ لا ننــسى

يَحدثُ

إذا ابتعدَ الأعمى

مخفوراً بِهسيس الظلام

أن تنبثق من بُؤبؤيه

عصافير

بَرَّاقة

وأحياناً

إذْ تَتفتَّح عُيون الطَّلِّ

تتقمَّص أزهارٌ

شفاهَ الغواني

ومرةً

رأينا عراَّفين

يشْملون عيون النّهار

وبغامض التَّعزيم

يصنعون من الرَّمادِ

ظلاماً

ومرةً

فكَّرنا

في المصير الأسود

للطَّحالب الحَمقاء

فنما قلقٌ كثيف

بأذقان أقزامٍ

يستعبدون المستنقعات

وأجراسَ

أرواحِنا

لكنْ

يتوجَّب نقشُ هذا

على آماقِ قَوسِ قُزح

كيْ لا ننسى

أنه يَحدث

إذا ابتعد الأعمى...

كان صباحٌ...

كان صباحٌ يَجوب الشوارع

مُتملِّياً غُرفاً تَرقص في الضباب

وكنتُ هائماً أيضاً على

هَمهمة الحصى

حَواليَّ نَيازكُ فقدتْ رُشدها

إِثْرَ صَدمةٍ ما والعُشب الميّتُ

يُوجِّه سأمَه عالياً إلى فمي

والحكايةُ التي تَدِبُّ على جبيني

لم تَكنْ لترتاحَ في ظِلِّ

رِياحٍ هبّتْ لتخلعَ

عن الأشجار شفاهَها

وكان الصَّباح الصّغير يمشي

رازحاً تحت صراخ

أسنانَه وأنا جنبه

أتنصّت للموسيقى الغريبة

التي تتولَّد

مِن قَلَق العابرين

ريـــف

كانَ الليل، سائسُ النُّجوم الماكر، يَغتسل في بركة من دماء الخيول حين غادرتُ بيتي، موقورَ الأذنين باعترافات النبيذ.

وأنا أتملَّى المشهد، تمدَّدَ ريفٌ شاسعٌ أمام قدميَّ، مُجلّلاً بِصهيلٍ مَديد، بشقشقة غريبة. كانَ ريفَ عصافيرِ العُزلة، وضاعتْ فيه خُطواتي، يَبْهرها ضَوءُ العدم.

شفـــافيـــة

ما الذي ستتذكره من أيّامك التي خضّلتْ أرصفة المدُن بعرق المرائي؟ نهاراتٍ تنثر فضّة الجبين على موائد تُقامر من حولها الفصول. ولياليَ تَسُنُّ نصالها على جلد أحلامك...

وأصابعك التي أسْلمْتَ لنعيب الجزُر. وتتركُ نباتاتٍ هوجاء تجوس في البراري المحتمية بأهدابِك، فترى في النوم أن جسدك شفَّاف كمزاج ينبوع، وأنَّ لك عظاماً من نُحاس يُنْذِر بوميض صباحاتٍ باردة على الفم.

ترى أنَّك ترشف خمرة الأسلاف من ضِرع ناقة الله!

وكنتَ تتوجّسُ من ظلِّ الرَّاعي. الراعي الذي عاش رضيعاً في دمعة أُمه، وتكلَّم، وهو بعدُ في الدَّمعة... وها هو يَقذف في وجهك بعرائض اللبلاب، فيما أقزامٌ يُترعون نخاع المكان بجثث مسروقة ونيازك... ألمْ يكن هذا كافياً، فتأتيَ ريحٌ غريبة لتنشُر هوسَها على خُطاك؟

يُفاجئني المطر

على مِحفَّة الهذيان

تتمدَّد شقيقةُ الزَّبد

مُذْ صُعِقتُ ببروق جسدها

مُذ عشقتُ حدائقها المعلَّقة

بِضفائرِها

بدأ المطرُ يُفاجئني كلّما غَفَوت

لذا فأحلامي

حافلةٌ

بأقواس قُزح.

شَكوى

هذه السّماء ملتاثة

إنها ما تنفكّ تَلُوك

ثِمار كآبتَها

قاذفةً بالنوى

التي هي جماجمُنا المعدنيّة

في بُحيرات النّدم.

أَلَق

الطِّفلة الغريبة التي كانت تحكي لنا

عن رِفقتها لقمرٍ وديع أَلْثَغ

والتي مضتِ البارحة لتنام

جنْب المدفـأة

قائلةً إنَّ عناكب مدربَّة

تَنسج من نُخاع الزّمن

خُـمُـراً لإناث الزَّواحف

مازالتْ بعدُ لَمْ تستيقظْ...

ذلك أنّها ليستْ في مكانِها

فهي تتمدّد على شاطئ بعيد...

نَمضي إليه لنرى:

ثمّة قوارب محملَّة بأمواجٍ حوامل

والطّبيب المسؤول عن صحّة الزَّبد

ما إنْ رآنا

حتى سارع إلى التخفِّي

تحت كثافة ظلِّه...

وهي، هناك، مشدودةُ الأصابع

على وُرود الليل النَّدِية

وألسنةُ الموت تلعَق أجفانَها...

ما يلتمعُ على جسدِها

ليس برْقاً في حِداد

إنَّها الدُّموع السَّوداء لِريحٍ

تأكلُ الطّيرُ من رأسها...

قَــرار

إنَّهن خَدينات النُّجوم، يَتهادين على نَمارِق المُحيط، لاحظ المجنون، وهو يُحسُّ أشجاراً تحتفل في قامته السَّعيدة، جمراً يتراقصُ، جذِلاً، في عُروقه... لكن سرعان ما داهمه الحزن إذ رأى ريشاً يتناثر في الفضاء: تلك كانت يمامةَ روحه، التي ما إنْ ظهرتْ إلى العراء، حتى خنقتْها أصابع لا مرئية.

وتعاظمَ يأسُه وغضبه، إذ تذكَّر كيف احتجز الدُّهاة أجملَ صيحاته في مكان مجهول، وكيف أكرهوه على أن ينقُل فوق ظهره شُهباً إلى مَسقط رأسها، وكيف حَشَدوا صُوَره من كلِّ المرايا التي سبق أن رآها فيها- حَشدوها وجعلوها تتربَّصُ به في المُنعطفات... إذّاك قرَّر أن ينظم كُريّات دمه في عصابات مسلَّحة، ويبعثَ بها إلى الأدغال، كي تعيد، بالعنف،

شيئاً من التّوازن

إلى رأس العالَم.

مصيـــــر

تلك العذراء البهيَّة

ودموعها من حليب

كفَّاها مفتوحتان

لِضحكِ الأعشاب

وكلَّ صباح تلتقطُ مِزَق الأحلام

المُتساقطة من أجفان الكواكب

وتُخفيها في عيوننا

كلَّ مساءٍ تَكِدّ، ونحن لا نُزعجها

إنّها تضفرُ أكاليلَ غارٍ

للّذين من بيننا، خِلسةً،

سيُصلَبون.

فــي حديـــقـــة الغَلس

في حديقة الغلس، هنالك يدان تقطفان من شجرة الزّيتون عيوناً حَوراء. تحت ضوء النُّجوم، تنمو سريعاً أظافرُ ظِلّيْهما. وهنالك الأعمى الذي بدأت عظامُه تُغادره، وها هو يَنسج من الحرير ومن الألم شِباكاً ينصبها لِفراشات الليل. أثناء النّوم، وردةٌ بين أسنانه ستُعيد ترتيب أحلام فمه. لكنّه، حين يستيقظ، سيرَى. بأبصارِ خُطّاف يحمل ربيعاً تحت كلّ جناح، سيراها: تلكَ الأغصانُ المدمَّاة التي تنعقدُ إكليلاً على جبين الصّباح.

صُـــعود

كانت أمطارٌ، بداخل رأسه، تتهاطل.

ثم أطلّت الشمس مِن هودجها العليّ، فهرول نحو بيته، محاذراً أن تنزلقَ قدمه إلى واحدة من تلك الحُفر، حيثُ يُوجَد دائماً من يُقْعي ويَرفو كوابيس المياه.

في طريقه، كانتْ بضعةُ عصافير تصلب اللصّ الذي سرق قلائدَ شجرة الحوْر، وكان جمعٌ من المُقعدين، مُمسكين بالفراشي وأوعية المراهم، يجدُّون في شُغلهم: إنهم يُلمّعون جِلد العدم.

أنفاسُ الظَّهيرة عوسجُها كثيف. هكذا أخطأ، وعِوَض أن يصعد الدَّرج نحو بابه، وجد نفسه يعتلي جبلاً، حيث موتى يتعجَّبون: لِكلٍّ ميْت جثّتان.

أعاد الكرَّة، وفي هذه المرَّة، ارتقى- لاهثاً، متوفِّزاً - سُلَّمَ ريشتر إلى أن شعر بزلزال عنيف يَضرب خدَّه الأيمن. أحياء عديدة، في جَنبات المدينة، دُمِّرتْ عن آخرها. والذين فتحوا أفواهَهم، صدرت عنهم آهات معشوشبة. عيونهم سافرت عبر تخوم السُّهاد. وخرجتْ غربانٌ من ليل قديم.

أخيراً، أخيراً، وَجد نفسه في غرفته، آسفاً لكونه لم يَحصل على سجائر، فالبائع كان قد أغلق دكَّانه، ليقومَ بمعجزات عظيمة أمام سَحليَّة مَهيبة لم تُخْفِ انبهارها...

أشعلَ، إذن، عشيقتَه، وطفق يُدخّن سيجارةً خيالية.

رغبَ في تقبيل مريم، عشيقته العذراء، لكنها الآن مجرد كُومة رماد. تفادى النحيب حتى لا يزعجَ جيرانه اللطفاء، تلك العائلة المكونة من خمسة أقواس قزح سُود (قيل إنّها جاءت من غانا).

وكما يحدثُ حين تصير أذن المرء وكراً للإجرام، فقد كان قلِقاً. لا يُمكنه أن يبقى بين هذي الجدران التي بدأت تتخدَّد وتتهدّل، فالسكاكين، وسطها، تَزحف وتتلوّى كالأفاعي، والقناني الفارغة تَهبُّ مِنها رياحٌ برصاءُ، وصمت الكراسيّ شاسعٌ ومتلألئ مثل نوم المجانين.

ولا هو يستطيع أن يَمضي إلى الخارج، ففي هذا الوقت بالضّبط، تتحوَّل بضعُ غيوم قططاً وحشيّة، وتسقطُ على رؤوس المارة الصُّلع.

مسَّدَ على رأسه الصَّقيل، وكان ضحكٌ في المرايا.

للشتاء أسماؤه...

للشتاء أسماؤه السّرّية

في رُدني معطفه

تتخفّى العنادل

الهاربة من دموع العدالة

وله أيضاً بيارقُه المُرَصَّعة

بِهَيْنَمَات قوسِ قزحٍ يتيم

حين تُطِلُّ شمسُه العابثة

وَسْط سماء

تُقامر مع أسلافنا

بعظام النّوارس وفِضّة الغُيوم

وَيُلقي ضووُها خطبتَه التي

يسيلُ منها عرقُ الأبالسة

على آذانِ نهرٍ لنا

نَنفضُ عنا نَقْعَ الكآبة

نتناسى الصّباحات السّجينة

في قناني المُروج

ونَنتظر...

ننتظر أن تعودي إلى غُرَفنا

يا ملائكةً

من مياه!

صَلــيــل

سُيوفُ الشتاء، بداخل رأسي

طُولَ الليل

تقرعُ كؤوسَ الليل

هكذا استُنْفِرَتْ حُشودٌ

من عظامي القديمة

طالما انتظرتْ هذا الصَّليل

للانضواء تحت لِواء

الكوارث

التي تتمنطقُ بأحلامي

لهذا، لا أستريح

خلال اعتراف المطر

قبل أن أمضي نَحو سريري

السّادر

في أرَقه الخاصّ.

رقصـــــة

أَعْدَتْني هذه الورقة

بِحُمَّاها

لا سبيل إلى الشِّفاء

مِنْ طقس هذه الأسنان

أعزَلُ أنا

حين مرّ شِهابٌ بنافذتي

لم يترك لي غير فُتاتٍ من نصائحه

ولَأْمةٍ كانتْ لأسلافه

سأتدرَّعُ بها ضِدّ كُماة الشّتاء

وأُوغِلُ في العزف

على كمنجات الغواية...

لكنْ ما الذي أفعلُهُ الآن

وقد بدأ هيكلي العظميّ

يرقصُ بجانبي

على إيقاع القُشعريرة؟

III

راية الهواء

طبعة أولى: منشورات عكاظ، 2001. -طبعة ثانية،
رَقميّة: منشورات حِبر، 2020.

الضّـحـك

فيما كانت دِيَكَةٌ

تَحْلِجُ صوفَ السَّحر

عبْرَ نَسيم رقيق

متلفّعاً بحرير القوافي

أما الفتنة النّائمة

في صالون للحلاقة

فقد أيقظَها شَعرُكِ

ثانيةً

ثمّ بدأتِ تركُضين

خلفَ جداولَ جاءت من بعيد

جداولَ كَشَطت بأظافرها

أهراماتٍ

عن جِلد أخناتون

ثم عادت لتسريح

في عُيون المجانين

تبتعدين

وتُغْضِين عَنّي

مثلما تتجاهل النافذةُ

الجِدار

وأنا مَصْهرٌ

لِكروم اليأس الحمراء

ناطورُ البستان الذي

يتشكّل من هَـيْـنَـمـاتِـك

تُغْضين

أنت التي دمدمتْ في ذاكرتك

طفولة المياه وغنَّتْ

حدّ أنَّكِ، طيلة ليَال،

ما كنت تتحرّكين حول رُسْغِي

أو على زَبد الفضاء

إلا سباحةً

مُتَّكئاً على جدار

من صبوات

قرب ربَابة

تنسج كسوفاتٍ

من أليافِ أحلامها

أرقبُكِ وأنت تُسرْنمين

على مياه نهر

نُوِّم مغناطيسيا

وحُكِمَ عليه بالضَّحِك

مدى الحياة

وسِرْتُ نَحْوَكِ تحت أمطارٍ

مضرّجة بزرقة ولادتها

وتحت برقٍ رجيم

إلى أن، أنا نفسي،

في حِضن

الزوبعة

سَقَطْت

وكانت الزّوبعة

قد اندلعتْ حقّاً

في فنجان صغير!

مَرّت ساعاتٌ توتّر أقواسها

اِعتزلتْ آلهةٌ في أقفاص

عَبَرَتْ عربات

محمّلة بريش كثير

يدفعها رُضّع ضاحكون

ألقتْ أيكةٌ بهوامّها

على قذالي

وأنا أبذل كامل جهدي

لأغادر محبسي:

الفنجان الصّغير!

في عيني اليمنى

تلالٌ تَثْغُو

وقرب قدميَّ

الزمنُ، أشقرَ ماكراً،

يَعْرِض على السماء

غروباً مُزَيّفاً

وإذْ خفقَتْ، في الأعلى،

رايةُ الهواء الوحيدة

التي هي الغراب

حطّمتُ، أخيراً، أسوارَ الفنجان

وخلُصتُ من محبسي

بجراح

طفيفة!

وها قد جاءتْ نَجمةُ جبينك

التي اسمُها لمعةُ الجيرانيوم

ونادِيْــن – هي

وجراحي –

صيفاً يَغُذُّ السَّير

نادَيْــن مساءً

يَهبط بمنطاد

ولمْ يكن الظَّلام كثيفاً

حينَ بدأت أراغنُ شَعرك

تُغذّي شائعات

عن حَبَل الأرض

بأرضٍ أُخرى.

أمــام بـــــاب الحُبّ

أرضٌ وهّاجة

بِعذابات الحَجر، تَرِفُّ عليها

أجنحةٌ بيضاء

خلال أصائلَ بيضاء

مِن هنالك جِئْت، ولمْ

يَكُنْ في طريقي من مُفاجآت

سوى أنَّ بِضع شُجيرات

كانتْ، أحياناً، من فَرْط الدَّهْشة

تتحوَّل إلى كمنجات

بينما عيْنُ الحلزون

تقتنص ببريقِها

ألوانَ نُمور حالِمة

أنفاسي كانت تتغلغل

في رئَــتَــي مساءٍ مُعَربد

وفي أثلام أرض المرايا

من حيث جئت، مخفوراً

بجوارحَ سبق أن سَفَّت

من طَمْي العدم...

والآن، افتحِي الباب

قبل نُضوب النَّشيد

المتصاعد من أهدابي

افتحي بسرعة

فَدَمُ اللّيل بدأ يتعفَّن

والجوارح التي تَخْفرني

والتي هي روحُ العالَم

قد تمضي لتضيع

في أدغالِ

كوكبٍ

بعيد!

الـعـيـــن

الكأسُ المُترَعة بمِلْح اللّيل

تجرّعْناها

أَسْرَعَ قليلاً من الحُمّى

ثُمَّ عَيْنُكِ التي تذْرو

باروداً كثيفاً

على ألوانٍ

كانتْ لِعيَــْنِي

ثمّة أقمارٌ

في فضاءٍ بيتنا

تنبضُ وتضخّ دماً

في شرايين الهواء

- «إنهنَّ كنَّ قلوباً ـ تقولين ـ

أيّامَ كانتْ سنابلُ الحُبّ

تُصيخُ لهذيان الشَّمس»

- «والآن،

إذْ سنرحل، فَلْتعلمِي

أنّ عيونَ المَها

هنَّ اللّواتي سيُسْعفننا

على الجِسر

الجسر الذي سنعبُرُه

أعلى قليلاً

من الحمَّى»

- «لا تَنْسَ

ما دُمنا سنرحل

أن تأخذَ السَّكاكين الذَّهَب

فثمّة في طريقنا جبلٌ صامت

يَكنزُ أنفاسَ العصافير

ويرمي المُدْلِجين العُزّل

بِأَعْيُن الجرائم»

- «أُنْظُري

إنها البَبَّغاوات

المُنْبَجسة من خُطاك

تُؤلّف منظومةً من خَرَز

عن صعوبات الكلام»

الرّقْصُ أسهلُ حقّاً

لكنّ قلبَ الموسيقَى

مُثْقلٌ بِمِلح الليل

والعازف؟

جاء أطبَّاءُ

مختصّون في العين

والكعب والحنجرة

قيّدُوهُ شنقُوهُ

بحبالٍ صَوْتِيّة

قدماه تتدلّيانِ تتدلّيانْ

تنقبضانِ تنبسطانْ

إنهما تُدَوْزِنَان

أوتارَ ريح الصَّـــبَا!

أكثـــر زرقـــة

لا تتركي يدك على جبين الليل

وأحلامُكِ، دفّئيها في بؤبؤيَّ

فالبردُ بدأ ينثر زَغَبه، هنا،

حول الأغصان والشِّفاه الراعشة...

أهزوجةٌ ما تتناهى إلينا، أكثرَ

زرقةً حتَّى من اللاَّمرئيّ

تقولين إنَّ ثمّة من يُغنِّي

في هذي الغابة؟

تقولين إن الغابة متبرِّجَةٌ

بذُهان السِّبَاع؟

وأقولُ لك إنَّه الشِّتاء

على أصابعك

يُحْصي ذنوب الخريف...

كوني، إذا شئت، أختاً

للسّحابة الجريحة

التي تتبعنا

وتلوّن شَعرك بذكرياتها

أَبيحي، إذا شئت، لعظامك أن تصير

أكثر زرقةً

حتَّى من اللامرئي!

لكن، خَبّريني لماذا

-حين فكرنا سويَّة

ونحنُ أمام مائدة الإفطار-

في كل تلك القُبل المنسيّة

على العتبات

انهرق نخاع الكأس

في معصمك

ثم علا صُراخٌ

في الحليب؟

بِلَـمسة من أكُفِّ النسيم...

طريقكِ إليّ مُمَوَّهةٌ بآثار مرَح الفهود، ولكنّك تتقدّمين. والمسافة التي بيننا، بلمسةٍ من أكفّ النسيم، تصيرُ نهراً ميّتاً. أمّا الغرقى فيـه فـأحياء. وإنْ أحدُهُمْ أنْشِـبَـتْ في عُنقه الأظافر التي من فيروز، فسرعان ما يُلفَظُ إلى أقرب ضفّة. والكراكيّ هي التي ستمضي به ليُدْفَنَ في أجمل نجمة... هل قلتُ لك إنِّي أنا نفسي كنت نهراً ميتاً، ثم جاءت تماسيحُ وبدأتْ تطوفُ حولي، فغافلتُها ووثبتُ بقوّة، في هيئتي الآدميَّة هاته، وحملتْني ساقاي بأقصى سرعة إلى هذه المدينة، حيث أُوجَدُ بانتظارك؟ وأنتِ أنتِ، ستصِلِينَ ذات فجر يقذف من بين شفتيه موسيقيِّين أمامَ بابي، فيما السّيمفونيات التي تُقاسمني غرفتي، تشمِّرُ عن سيقانها وتقفز من النّوافذ. وستتكلمين عن الدّساكر التي مررتِ بها، وتروين كيف قطعْتِ أرضَ الثُّلوج العمياء، ذات أصيل سقط خلاله الدبُّ الأكبر في الأحبولة التي نصبها له المنجّمون، وكيف جُسْتِ المُرتفعاتِ، حيث كنت أبدو لكِ، أحياناً، في مدخل كهف، أو حتَّى على قمّة شجرة، مع أنّك تعلمين تماماً أنّي هاهنا، قرب الشّعلة التي تُقارعني الأنخاب، وإذْ تُتعتع، تُحاول أن تحرق أنفاسي وشَـعْـرِي. وأنا أبدو متوجّساً، حائراً، وأحياناً، أدخل معها باستماتة اليائسين، في مفاوضات

نُجْريها بداخل إحدى الجماجم.

لكنّكِ أنتِ أنتِ

طريقُكِ إليّ

تُزْعِشِينَــها

بِخطوة.

الأمطار تَحَصَّنَتْ

لَمْ تَكوني

حِينَ الطّائراتُ التي من شمع

ذابَتْ في عيونِ موتاها

حدثَ ذلك في الهجير

كُنْتُ أصطلي بنارِه

وكنتِ مقيمةً في شتائك

ومَطَرٌ جميل

يَهمي على

حَلمَتيك

ثمَّ جاءتْ إناثٌ غريباتٌ

ماجناتٌ تَقِيّات

ألهَيْنَني زمناً

عن النوم في حديقة

ولمّا، أخيراً

في حديقة نِمْتُ

أيْقَظَتْني غيومُ يَدَيْكِ

ثانيةً

وما تَأسّفْتُ

فقد تَعَوَّدْتُ

أن يتكاثفَ الحنينُ

في أظافري

أنْ تغرَقي

في مياهِ أعْماقي

وكانَ يَحْدُثُ أنْ تتحوّلي

ريحاً مراهقة

ألَوِّحُ لك بيديّ

فَتُسْقِطينَ أوراقاً

وتهبّين في أحداق

قُلتِ: نَلْتَهي بالآلام

نَجمعُ ضوء الوَهم

بأهدابنا نتضامَن

مع دم العُصفور

كُنتُ في الهَجير

أذابَ إناثاً غريبات

سَخَّنَ ألفاظاً

فتَّرَ رعشات

لكنّ اللغات

هبطتْ من أعالي الجبال

والأمطارَ تـحصَّـنَـتْ

في الخرائط

ناعمةً كانتْ لَفْظَتُك

أعيادُكِ انسكبتْ في قواريري

والمُقَل المغروسة في الثّلج

بَدَأَتْ تُزْهِر

في الثّلج

ولم نكنْ

حين غذّينا بالسّفر

السّهر الطّويل

حين وجّهنا أنْفاسَنا طلقاتٍ

إلى قلبينا

ودَلَّيْنا التماثيل

في الآبار

قُلْنا لَو المِرآة أصْبَحَتْ

صَرْخَتَها الخاصّة

لَتَحَوَّلْنا إلى لبلاب

وأبْقَينا جسدينا في السّرّ

وأنهكنا التّلال!

وإذا جاءنا البَحر

طَمَرْناه في الكتب

حتّى يُصْبحَ هديرُه

ذا أبعادٍ فلسفية

فتنسدل السّكينة

على السّواحل

وتُقيم الموسيقى

في جنون الأزهار

قبل أن أعرفَك

عَرَفتُ ومْضَ ذكرياتك

كنت قد فقدت

ميولي الاجتماعية

استبدلتُ بها أشواكا

ذات أحلام

أجراساً

تَعرف القلق والنّدم

عَدَمًا ناضِجاً

أنيقاً

يُوَشْوِشُ لي:

ستجدُ السّرّ كلّه

في انقصاف عمر سلحفاة

في انقطاع أوتار نَجْمَة

وفي وسواس الثّواني

ستكتشفُ زمنك

قَبْلَ أن تريني

سرّتْكِ لوعتي

حَدّقْتِ في انعدامي

قطفْتِ بتلات ظلامٍ

ابْـتَـعَـثْـتِـني في ضَلالة رقيقة

في أبد متثائب

في مشهدٍ أخير

في ضاحية

حيثُ كان جَسَدانا

يَعْكِسانِ الأضْداء ألواناً

فيما، أمام أقدامِنا

كانتْ جُسُور كثيرة

تَتَبَخّر!

IV

فراشة من هيدروجين

طبعة أولى: دار النّهضة العربيّة، بيروت، 2008. -طبعة ثانية، رَقميّة: منشورات حِبر، 2020.

كوكبٌ مُعربد...

كوكبٌ مُعرْبد

فوق رأسي

ينزفُ مطراً

قاتماً، يملأُ جِراري

بألم الأعشاب بِقلق

الطّير

تبْقى يداي سعيدتين

بعد أن يهمسَ لهُما النَّبيذ

بنشيد طفولته

لفائـف سحريـة (1)

نحن وحيدان في هذا المقهى

ولا نأمةَ تصلُ آذاننا، عدا

هسيسِ عِظام فجر

يَشيخ سعيداً

نُنصت، نُدخّن لفائفَ

سِحريَّة، يخفّ وزنُنا

نرتفعُ، مُبدّدَيْن في

الهواء، مَطراً

ونُدَف ثَلجٍ...

الأرْضُ نفْسُها

داخَتْ، فما عادتْ تجتذبنا

ويبدو أنّها كفّتْ

عن الدّوران!

غربانٌ تحسبُ أنّها كواكب

بدأتْ تدور حولها.

لفائف سحرية (2)

نُغنّي بألسنةِ الذين ركضوا

بِمُجرَّدِ ما وُلِدوا

فِيما ثلاثُ غيمات

تُحتضر حَوْل رأسينا

الأُمّهاتُ في هذا المقهى

أقلُّ من أسمائهنّ

دخّنّا ودخنا

فمضتْ عظامُنا

لِتؤازرَ أخانا المطر

أخانا السّاقط لكنّنا

نُبجّله

مِن الدّخان صُغْنا أطفالاً

دَلفوا إلى بطن أم

وهناك تلألؤوا

لفائف سحريّة (3)

مِن حولنا قلوبٌ صغيرة تُشقشِق

وصناديقُ يُقالُ فيها الحديد فيه

بأسٌ شديد

لكنّنا ندخّن وجداولُ النّسيم

بحُنُوّ تُلامس أكتافنا

نعلمُ أنّ جسدينا قد يضيعان

في هذه العاصفة

من التّصْفيق

الآبار محظورةٌ في هذا المكان

إنّه المقهى الذي وأدوا

تحْت آلام القمر

يَومها، تركْـنــا رأسينا في غابة

لِتستعملها العنادل

المضروبةُ الأعناق

تــرْســو المُــرَبّــعات

رغْمَ أني مُخْترع

بارومتر الآلام

فقد سئمتُ المكوث في هذه الجزيرة

كلّما انزاحتْ نحو السّاحل

أقول: إنّه النّسيم الهائم

كلّما بدأنا نتأمّل الشّفق، كلّ

في قَعر كأسه

إلا وترسو قُرب رؤوسنا المُرَبّعات

التي تأسر بين أضلاعها العَصافير

ويوم أُعيدت إلينا أنْفاسُ الغابة

بدأتْ أرقامنا

تــتــبَــعُــنا!

ثمّ سقط وجهي الحجري

على وجهي

وها إنّي أزْمعْتُ الرحيل

بعيداً، بعيداً

حتّى مدينة المعارك

التي تنزلق على جُدرانها

الكدمات

حتّى ضِفّة النّهر الذي يُدَندن

كُلّما ابتسمَ فيه غريق

حتّى الصّحْراء

أُفكّر: لِمَ كلّ هذي الدّموع

التي تتشكَّل خِفْيةً

تحْت أظافرِنا

ولِمَ تتوجّسُ الأشْجار

من شُعوب العصافير

أفكِّر: يجبُ أنْ نستمرّ في السّير

حتّى الصّحراء

التي تَنْبت فيها المسامير

أحياناً، يبدو لي

أنَّه لا مبرّر لوجودي

سوى أني زاويةٌ

في مُثلَّثِ رعشاتٍ

برْقٌ في غابة

شررٌ في عيون الصّيف

في ربيع العمر

رأفةً، لمْ نُوقظ الدّموع

المتمدّدة جنب رأسينا

وكلَّما عمّ الأرق

أعاليَ الجبال

زوّدْنا الجداولَ المُنْهَكة

بنغمات ومُسكّنات

كُنَّا بعدُ في ربيع العُمر

فما إنْ ضربنا خِياماً

لقبيلة الرّضّع التائهين

حتَّى دفعتْ بنا العصافير توّاً

إلى مشارف السّــتــين

واحدٌ منها امتزجَ بهمسك

ثمّ طار بعيوننا فلم نعدْ

نُدرك منه

إلا الرّفيف!

لكنّنا، بكلّ تأكيد

سنسترجع هاتيك العيون

حين تسقط مع الثّلوج

في صباح شتائي

خيرٍ

من ألف شهر

أصنعُ سهاماً

من شَعْري طارت فراشات

يمكنها أن تلسع وتُدْمي

ومتى أشأْ، فهي تَزْدادُ

ضراوةً

لمْ أكنْ قطّ مستكيناً

والآن أصْنعُ سهاماً

من قَطراتِ نَبيذ

ليتَ لي

«ليت لي قلباً بقلبي...»،

حقّاً يا أبا نواس

قَلبٌ أوّل يُمْكنه أنْ يُحلّق

أخاً للطّليور، وأنْ

يتألّم، يُهصَر ويَتبدّد

وآخرُ يسهرُ عليّ

يُفرّق عني جيوش الأرق

ولا يتْرُكُني أمنح ابتساماتي

المسكوكة من بُقَع الضّوء

ولا خُطُواتي

لهذي الهاوية التي تتبرّج

أمام قدميّ

لا يتركني أنْثُرُ لحظاتِ تمرّدي

على نوم الأعْشاب

حَـيــرة

لمْ أنصبْ فخّاً لطائر

نِمتُ قليلاً جنْبَ شَجرة

وانْغرسَ حُلمُ الطّائر

حتّى أسافلِ جذورِها

أحْلامي أنا مُشَــتــتــة

في الآبار

وثمّة عينٌ تجوس

دائرةَ الصّفر نفسه

الذي رَسَمَتْهُ أنْفاسي

أمضي في سبيلي الوَعْر

وإذا ما تعثّرْتُ وسَــقَــطْت

يَبْعــثُني الضّحكُ واقفاً حتّى الغيمة

التي كانتْ أمّي قد سلّمَتْها

إلى سماء الأيتام

أمْضي في طريقي الوَعْر

لا أقلقُ إنْ كانتْ قدماي المارقتان

تنبُشان المثلَّثات تنفُشان ريشَها

ولا آبهُ حتّى بصورتي التي

بدأتْ تُـثـقِّـبُ المرآة

فما الذي يُمْكن أنْ أفعله

بكلّ تلك الحبال التي ستتدلّى

من هاتيك الثـقوب

- أنا الذي رأيْتُ يوماً جدولاً

يتسلّل من فتق في ستارة

فقلت: جاء لِيتحصّن -

وماذا يُمْكن أن يرى طائر

في حُلم

ما الذي تستطيعُه الشّجرة

بعد أنْ تمّ تأجيلُ المطر

وأين طريقي، الآن

وقد بدأ الضّوء يتخفّى

في الذّهب؟

ذِكْــرى

كان عليّ أن أكون حاضراً

أثناءَ الاستقبال

أنْ أحتمل كلّ تلك القسوة

أنا الذي لمْ أقُلْ يوماً لجدول:

أُصمُتْ

أنا الذي كنْتُ أشْتري النّوم

بنقودٍ مسكوكة من أعصاب الجبين

ولا أرى في الحُلم سوى

شجرةٍ مِن ماء

فيها يغرقُ العُصْفور

وتنْطفئُ جمرةُ الرّيح

قم لتكون حاضراً للاستقبال

قال أبي

ذلك أنّ أَحَد أسلافنا

قدْ أبْحر

من ميناء الموتى

بِحَنين

أحياناً، أستدرجُ كوابيس

إلى غرفة نومي

صمتي جَـبَـلٌ

مكسوّ بالجليد

فـمـا عليّ إلا أنْ أُمسك

عن الكلام

لأتزلَّج وأنْـتَـشي

لكنْ أمتعُ من هذا

بعضُ الكوابيس

التي تندثرُ فيها سُلالات

وتتبخّر جُزُر مغناج

وتتذكّر الصّحراءُ البحر

بِحنين

البِـئـر

(كما في حُلم!)

كان بُخارٌ ونصالُ النّغم تتصاعد من البئر التي يُنْكران وُجودَها في غُرفة الفُنْدُقِ هاته وأنا أؤكِّـدُه... عـبـثـاً يَسْعَـيـان- جاري وِلْيام الأرمنـــي والخادمة- إلى إقــنــاعي !

الخادمة بِكاميراها التي لم تعدْ تلتقطُ صُوَراً إلا لطائر يَقضي الليل في شَعْرِها تُقدّمُ لي كأساً، أما وِليام فيتمشّى في الرّدْهة... رغْمَ شَعْرِهِ الكثيف فإنّه يَمْشــي كأصْلع، وهذا من غريب التّصَنّع! كما أنّه سَيَمْضي إلى الدّغل ويجمعُ أرمينيات من الأعشاش ليعيش فيها حين لا نكون نراه...

تُحَدثني الخادمة عنْ رَجُلٍ اخْتزَلَ بَيْتهُ إلى مُكَعَّب صَغير، فيما تَصْنـعُ شُموعاً من دموع، ومن النّافذة، يَدْخُل الضّوء مكسوراً ومُرَمّماً.

ثمّ ها وليام، تتوالى على وَجْهه طَرَقاتُ المِلح، وهو يتكلّم!

عبثاً يُحاولان زَعْزَعَة يقيني! ...

يُحاولان تشكيكي، لكنّني أبْـقـى

واثِقاً كخُطْوَة تحت المطر...

فليـُقْـضَ عليّ بالبقاء

في غُرْبَتي هاته

مع رائحة النّمل التي تَطنّ

حول المصباح

ولأبْقَ أسيرَ هاء الهواء

إنْ كانتْ لا توجَدُ بئر

في هذه الغُرْفة

رســـالــة إلى نفسي

أنا على ضفّة نهر.

السّماء مُلبّدة

بِزعيق صفّارات الإنذار

في أحد الكواكب.

أسْمع أيضاً قرعاً في عظامي

فكأنّها طبول دقيقة.

في وسط النّهر، تَظهر السّمكة

آكلةُ الغرقى.

على الضّفة المُقابلة، امرأةٌ تتعرّى.

وها هي تَسبح على ظهرها، تتلذّذ

مِن رُكبتيها.

تُقْبل نحوي ثم تعكس وجهتها.

إنها متردّدة، إنها متردّدة.

مياهُ النّهر غاضبةٌ من هذا.

غضبُها يَصَّاعَدُ شَفراتٍ

تُصيب الكثير من صغار الطير.

هل أبْقى على هاته الضِفّة

التّعيسة؟

يَمرق أمام عينيّ طائر

إنّه يشحب ويشحب

ربّما هو خائفٌ من الشَّفرات

ربما هو يتذكّر الشجرة

التي احتضنتْ

حُبّه الأوّل.

أأبقى هنا

مُنصتاً للقَرْع المتصاعد

مِنْ عظامي؟

زمنُ القَتَلة

(إلى طرَفة)

كان يَحْلو له

أنْ يُغَنّي في حذائه

لا يُحبّ أنْ يُؤلِمَ حجراً

لا يَحْتمل أنْ يزدري زهرة

وشَعَرَ أنّهُ مُفْرَغ من الكينونة

أنّه أصبح يُشْبِهُ عُصْــفــوراً

قيّدوا قائمتيه

أنّ الهواء يَلُفّه

ويُضَيّق عليه

وأنّه لم يعد يُطيق

أن يعيش بينهم

تسكّع طويلاً

في أزقّةٍ مُعتمة

شرب حتّى شعشع ظِلُّه

وتركهُمْ يَفـصدون

عِرْقـه الأكحل!

اكـتـئـاب

وطنُ العين

مَحجِر أو منطاد

بالمنطاد يمكنك الصّعود

في الفضاء

وصهيلُ الأرض

ينداحُ من كتفيك غناؤها من

عينيك

العيونُ قد تكون مستطيلة

وأحْياناً على شكل مُنمنمات

قد تَغْمِز العُشب تُقَبّل النّدى

فلها شفاه

ورُبّما تجوبُ حاناتِ المدينة

أثْناء نوم أصحابها

آه! في تلك الأيام

في تلك الأيّام الخوالي

كُنا شَعباً قويّ الشّكيمة

عيونُنا تقْذِفُ العَدُوّ

بِشُهُبٍ بحجارة من سِجّيل

من أجل ذلك، كان يَكْفي

أنْ ننقعها لليلة كاملة

في يُودٍ قويّ

ثاقبةً كانتْ أبْصارُنا

فيها يُسْمَعُ هديرُ الموج

وتنْعكس ملاحمُ عظيمة

لكنّنا كنّا أيضاً نتعذّب

حين نتذَكر أنّ عيونَنا

كانت، يوماً بعد يوم، تزداد
تَصَلُّباً

وها نحن، واحداً فواحداً

ننزوي، كئيبين، كلٌّ في قعْر

موجة

لأنّ لنا عيونَ غرقى

لأنّ حياتــنــا

خالية من الدّموع!

ما إنْ تقف أمام كــهــف

أنْفاسُكَ ضالعة في المؤامرة التي حيكتْ ضدّ أجِنةٍ غُرسوا في الثلـــج. والبجعُ الذي ينبثق من كتفيك يُثيرُ قلاقل في جنبات المدينة. تُرافِقكَ صبيّة تزعمُ أنّها ابنتُك، لكنّها مُجرّد فراشة متنكرة.

مع ذلك، فأنت تُحَدّقُ طويلاً في أعناق المارّة في سِيقان الخزامى. لذا، فأعداؤك كُثــر. وما إنْ تقف أمام كهف يَهُبُّ منهُ جنونُ نملة حتّى يُجرّدوك من أحلامك، ثمّ يُعيدوك، على مراحل، إلى ما قبل الولادة. بعدها يقولون: يُقيمُ في كسوف دائم، مع الفجرِ يَسْرقُ أصْوات المتثائبين.

كُـنْـتُ مــن أبــطال هومــيروس

أريدُ أنْ يبقى النّسيم على أناقته

أن تحضُر الفرس في الموعد

وأن تمضيَ بي

في الوِجهة التي تختار

أريدُ نهراً يُوَشّح صدري

فالبارحة، رأيتُ في الحُلم

أني نازلتُ آخيل

في الإلياذة

في الواقع، لا أُصِرّ على شيء

مِن هذا

فأنا الآن هادئ

وعيناي وحدهما العنيفتان

بـمـزْمـاري

بنغماتٍ مِن مزماري الذهبيّ

الذي ورثــته عن أسلافي (كانوا

يَغرسون أشْجاراً فتبدأ

في الغناء

وكانت الأنغام

حريرَهم الذي يَصْنعون منه القُمْصان...)

بموسيقى مزماري الذهبيّ

سأستدرِجُ واحةً

إلى هذا البُسْتان الكئيب

بنبتاته الصّفراء التي

لم تعرفْ قطّ الحُبّ

بناطوره الأعمى

الذي لا يُمَيّزُ بين الأرْضِ

وباقي الكواكب!

آه! هذه الوحشة تلزمُها

واحة

هذا البستان

في حاجة لنغمات!

يـوتـوبـيـــا

أخيراً، أيّها القلبُ بوحشتك

القليلة الغامضة

تنزلُ من نجمتك الأليفة

واضعاً يَدك في يدي

يا قلبي الذي غطَّى حدائق

بالنبضات

وها أنتَ، يا هذا الضّوء

تهُبّ متحمّساً

فقد ائتمنتكَ الطّيور

على وميض دمائها

والملَّاحون الشّجعان

التحقوا بنا

بعد أن أجبروا قراصنةً عُتاة

على التّـــخفـي في أرحام

بنادقهم

أنا، أيضاً، مُتهــيّــئ

فــقد كنتُ من مشاهير الكماة

وذاك ما تشْهد به طحالب الهواء

التي اخترقــتْــها سهامي

مُجتمعِين، سنُفلح بكل تأكيد

الضّوء سينيرُ طريقنا

والملاحون سَيمخرون بنا عباب البحر

وقوسي وكنانتي

على كتفي!

سنُحرّرُ الأمواج من حياتها الرّتيبة

ونجعلها تمشي على أقدام

سنمنحُ هذه الأشجار التّعيسة

ذكرياتِ طفولة

ومرايا تبدو فيها

غيداً مرحات

ونُقيمُ لهذي الشموس التائهة

الفقيرة

أعْشاشاً بين السّوسنات

وبقصائد مضيئة

سنفتدى سَبايا الحُروب القديمة

والغيمةَ التي ما زالوا يأسرون

في بنطال قديم

لماياكوفسكي

ومن تشأْ من الصّبايا

اللواتي تحولنَ إلى أسماك

نُعِدْها سيرَتها الأولى!

يقيناً أننا، مجتمعين،

سننجح!

وقـــــائـــــع

هذا الصّباح، لاحَـقـتـني

على امتداد شارع السّنجاب

- حيثُ، دَوماً

أقوم بنزهتي-

شجرة ذاتُ أنفاس حَرَّى

ذاتُ قوائمَ وبريق عين

وحين ابتَسَمْـتُ

اِنقلبتْ شجرة عادية

لها جذورٌ وعصافير!

يا أنا يا أنا

ها هي خلفك الآن

فإذا غنّيتُما معا

سيُغْمى على الغيوم!

وأثناء الظّهيرة، كُنْتُ أمشي

على الشّاطئ

وكانتْ، أيضاً، تتبعني!

كانت تُثير زوبعة رمل صغيرة!

فقلت: يا أنا يا أنا

إنْ دغدغتَ إبْطها

فستهذي بأسمائك

إلا أنّ شيئاً من ذلك لمْ

يتحققْ فابْتَسَمْتُ

لكنّي تذكرْتُ غابةً بأكملِها

كانتْ، في واحَدٍ من أحْلام طفولتي

قد اجتُــثَّــتْ!

وفي لحظة التذكر الأليم تلك، حلّ

الأملُ فجأة، إذ بدأتْ

غابتي الضّائعة

تتنامى، من جديد

أمام عينيّ

معافاةً، رهيفةً، منسابةً

على شكل شُعيرات سوداء

في عانة غادة

وقفتْ فجأة، وحيدةً، مَشيقةً

قُبالتي، واقترَبَتْ، جريئة...

ثمّ كان السّلطعون الذي

ينحتُ في الصّخر

وكان الأشيب الذي

يبيعُكَ رطل الكهرباء بدرهمين

وكانت مياه البحر

والفلكيّات البرمائيّات

اللواتي قد يخرجن في أية لحظة

من تلك المياه

ويمضين للتسكع في الحقول

آه! الفلكيات عاشقاتُ الأعشاش!

وكانت الشمسُ تُلوّح جسدي

لكنْ لا شيءَ من هذا كلِّه

يُمكنُهُ أن يَعْدِلَ عندي

خطوةً

في شارع

السّنجاب!

حـكـايـة

رَجلٌ مفتول العضلات

يستطيعُ أنْ يُلاكِمَ الزَّبَد

مع هذا، جِدّ رقيق

رأى يَدَي الفجر تُقطعان

فأجهشَ بالبكاء

ومن دُموعه

تكوّنتِ اليدان مُجدّداً

أكثرَ من عشرين مرّة، نزل الدَّرَج

نحو غُرْفة الأحد

في كل مرَّة، يطرق الباب مُطَوّلاً

ولا من مُجيب

بَدأ شكُّه يَهصره

وأخيراً، أدرك أنّ الأحد قد اختفى

أنّ الأيام المُتبقِّية

في حِداد

وأنّه يطرقُ بابَ غُرفةٍ فارغة

إلا من رائحة الدّم

وبقايا كوابيس

عَياء

لا تطلُبي منّي أنْ أشرب

كأساً أُخرى

من هذا الشّراب الزّعاف

وإذا شئتِ أنْ تقولي للعالم

وداعاً

دعيني أنا أُكْمل تماريني

وأتسلَّق حِبال قلقي

فالقلِقون، كثيراً ما يُفكَرون

في التماعات الأزهار السّوداء

وكثيراً ما يستشعرون في رئاتهم

آلامَ المسلولين

والتّعاسة هي ضَرْبٌ من الموسيقى

والطّيور المعدنية

التي يجري في عروقها الزّئبق

مع الأنْغام

يُمكنها أن تُحَلِّق حتّى داخل دم

الأغصان

أُتركيني قلِقاً

حقّاً، إن قلتِ وداعاً

سَتسري في عظامي

صلواتُ النُّجوم الخَرساء

غير أنِّي الآن، ما أزال

في سُكونِ كأس السّموم هاته

التي تُلامِسُها أصابعُك

برهبة والتذاذ

وقفتُ إلى جانب البئر

أنتِ لستِ الآن في الغرفة- لأنك تبحثين في الحديقة، عنِّي أو عن السّحليّــة التي غارتْ في رائحة العسل- فيما، من النافذة، تدلف الآهة، قادمة من فم بعيـــد، فتُحدّب ظهور المناضد وتُحيل أغنيتي إلى غبار.

أنا الآن على الشاطئ: أمامي السَّحرة، صهْدُ عيونهم حوّلَ بيوتاً عديدة إلـــى دخان. العالــم رهيب، يُكرّرون، فتنشبُ حروب ويتساقط نخـــاع شوكي كثير في صحون الباذنجان المقليّ وتشتدّ آلامُ كلَّ هائم...

سألِتِــني مرّة هل تُزعجني قرقعةُ عظامك أثناء النوم. حدث ذلك ليلةَ شابَ القمر. وكان الألمُ يتساقط مُوهِماً أنه مَطر. ومضينا معاً إلى الحديقة، فوقفنا إلى جانب البئر التي تَحلم ببلد بعيد.

وها أنا، من جديد، أُمرّر يدي على سنام منضدة، وأُدرك أني لن أذهبَ غداً لِرؤية عظام جدّي، وأنك ستصفينني بالكسول، العبثيّ، بالتائه الأبديّ.

أحيانـــاً، تكون ماضياً فـــي طريقك، فإذا بنحلة تعترضُ سبيلـك، تتمدّد أمامك في عرض الشارع، فتبقــى واقفاً فوق ضحكتك، ويحيّيك صديق يُوناني يَبذر قمح الإلياذة في أثلام كفـــه اليسرى، فتقف مشدوهاً، إنْ لمْ تلذْ بالفِرار.

التقيتُ بالحصان

أمضي شاحباً، لا أتوقف إلا جنب الفتاة التي تمدّ يدها فوق بحيرةٍ تقولُ إنّ ماءها سينضب إن استمرّتِ السمكة الحمراء في عضّ الطحالبِ ذات الأحذية الحديد.

تقول: إنكَ شاحِبٌ لأني امتصصت لسانك وأنت نائم.

وأنا لم أركب اليوم حصاني لأنه كان قد نسي حدوة يومَ بلغ أشدّه قرب جدولٍ، وأصبح يهاب الضِّفاف!

التقيتُ بالحصان في آخر تانغو بباريس، وبالفتاة حين كنّا نلبس جواربنا أمام إحدى الكاتدرائيات، وسرعان ما وجدنا نفسينا نَصْـفِـرُ في طنجة. روتْ لي كيف كانت ترسم دوائر خضراء لِـيُـرَبِّيَ فيها الشِّتاء أغنامـــه. وقالت إنَّها بدورها ربّت فراشة من هيدروجين في شَعْرها.

أخبرتُها بأني، في الطفولة، كنت قد ركلتُ تمثالاً، فاخترقتْ شُعلةُ قنديلٍ حشداً من الكلاب نحوي. وكنتُ، كلما تشكّلتْ قارورة من ظلّ يمامة، أُسارع إلى مَلْئِها بماء بارد!

قالت: أنتَ نهري الشّاحب، أنت نَهري.

والتفاحة في يدي...

كيف يُمكنني أن أشعل السيجارة،

وكلّ القدّاحات تَخَفّت في رُدنيك، مُذ رأيتِ في الحلم أنك تُحرقين خدّي.

بالأمس، كنّا في الطريق إلى عيادة الطبيب، ومرّ أمامنا صديقي المجنون، وكان يكرّر: النّحلة تحت السّاطور، النّحلة تحت السّاطور، وشعرتُ أنّي سأبكي أو أضحك، لكنه اختفى سريعاً، وكان دمٌ ينسابُ من الحُقن التي تَخبّ جنب أقدامنا، والطّقس بداخل آذان الكلاب يتحوَّل من فاتر إلى شديد البرودة، وفي الأعلى، عين الرعد تتّسع وتتّسِع.

لماذا تريدين إحراق خدّي؟

مسحتُ أعصابي بإسفنجة كما يفعلون أحياناً بأعصاب السيارات ثم وجدنا نفسينا على الشاطئ، وأردْنا أن نتأمل البحر. لكنْ لم يكن قد بقي منه إلا سبعُ موجات عجاف، يَحملن في مقاعدهن الخلفية سبع نساء ضاحكات. إلى أين يتّجهن بهن؟ في كفّ كل امرأة شمعدان. وفي الجُحور القريبة، سَقط مطر على الفئران. وكان هنالك من يَطوي البُسُط ويَفْرشُ الصرخات.

والتفاحة في يدي تكاد تختنق. ويدكِ تعبثُ بشعري.

الطبيب قال لا تركبا، بعدُ، سيارة جريحة.

انتظار

يُطلقون العنان لأنفاسهم، وينتظرون الأوتوبيس، ومِنْ حولهم الهواء بارد ومُغَضّن، ويثير الرّيبة. تدبّ الرّعشة في الأجساد، بسبب رائحـــة قوس قزح، وتُقضقض أسنانُ الهيكل العظمي المركون مع الدراجات إلى جدار الفنـــدق القريب من النّهر.

الرَّجل النحيف يبتسم لفتاة قبالته، تَقْرعُ الهواء البارد بمطرقة العُنُق.

وارتفـعَ صوت، فارتطمت ركبتان بِصَداه. أكانت تلك الهمسةَ التي قصمت ظهرَ الجمل؟ ثم وجّهَ المطر مسدّساته إلى أصداغ السيارات. في الوقت نفسه ضغطَ الموسيقيّ على زناد الأرغن. والحافلة لا تأتي، لكنّ تابوتاً مَرق على عجلاته المضيئـــة.

واكتشف الرجل النّحيف أن طائر الرّخ ليس سوى بناية من ريش. آن لنا، إذن، أن نتعقّل. أن نحنوَ على الفراشة الصّماء التي تقترب منا. على الطفل الذي عَلِقَـتْ قدمُه بين أسنان الصابونة.

طبعاً، أنا الرَّجل النَّحيف. أما الطِّفل فهو العبقريّ الذي اكتشف المعادلـة. كنتِ قد أيقظتني من نومي لتسألي: أيُّ معادلة؟ ألا تعملين؟ تلك المدونةُ عـلى عانة قارورة العطر. التي ستُمكّن يوماً ما من إنشاء طوفان صغير. من الإنصات إلى بوح تـنّورة.

ومن صُنع قفازين للهيكل العظمي الذي يعطس مركوناً إلى جـدار الفندق.

قبل أن نخرج لننتظر الأوتوبيس، أطللتُ من النافذة، فإذا بالرَّابية، قبالتي، عارية تماماً. شعرتُ بالذنب لكوني تَلصصْت. ثم سِرْتِ أمامي لكي نَنتظر، تقرعين الهواء بمطرقة العنق.

السّواطير السّيكوباثية تُحلِّق جنب نوافذ الفندق، ولا يأتي الأوتوبيس. نُصابُ بِرذاذ القهوة التي تهمي من عين الغراب، ولا أمل. تتكاثر الشفاه حول الأشجار، وأُعديكِ بألمي، ولا أمل.

والآن تَظهر الشّمس، وسرعان ما تتّخذ شكل قاطرة. ومِن غرفةٍ في الفندق، يتناهى إلينا نواح: إنها امرأةٌ تبكي طفلها، رهينَ الحمّام على الدّوام، بعد أن علِقتْ قدمه بين فكَّي الصابونة. وهنالك شاعرةٌ ترْمش بسرعة بسبب نَزق العصافير. وراعيةٌ تبكي بعد أن سَرى السّمّ في دمِ رابية عارية. إنها نفس الأصوات التي، ربما، كنتُ سمعتُها صبيحةَ صلّى جدي على سجّادة من الصّمغ فبقي ساجِداً طيلة النهار حتّى فككناه. في ذلك اليوم، تمكنَـتْ واحدة من دموعي من عبور ثقب إبرة، وتمّ العثور على مصائب قوم عند قوم آخرين، وتأجّج دمُ جرادة، فسُحِبتْ أسماء الحشرات منْ معاجم كثيرة. وها أنتِ الآن تستوردين الهمهمات من ذاكرتي. فهل ستُـنَـقّبين معي عن الأسرار المخبوءة تحت ياقة فراشة؟

ويُقْبل نحونا التابوت على عجلاته. يقف أمامنا، نحن المنتظرين. التابوت فارغ، يستلقي فيه واحدٌ منا، فيُـقــلــع به إلى مكان مجهول.

وتتكاثر الشّفاه حول الأشجار. وتمرُّ الدراجات الحزينة. ويُعديكِ حُبي للتّيه. وإذْ يتكاثف الغبش، نُعلن، نحن منتظري الأوتوبيس، إجلالَنا للمجهول الذي سافَر في التابوت.

إنْ كُـنْـتُ مـنْـذُ الصّـبـاح...

لسْتُ من يُجامل. أتركُ قلقاً ينْسابُ في بُلعومٍ أو في أنابيب القصب، حسَب الطقس وكيفَ هو مزاجُ زهرة الآس على كتف النّديمة لينا. وإنْ كنتُ منذ الصّباح في هذه الحانة، جنب هذه النّافذة، بعظامي التي تتحمّسُ أيّامَ المآسي، فذلك للتعبير عن تضامني.

مع مَن؟ يُسائلني بعينه المخمورة البدينُ الجالسُ قبالتي، وكنتُ حسبته يعلم...

مع من! مع أولئك الأقزام الذين جعلتْ منهم الغابة القريبة أشْجارَها القَصيرة!

الأَوْلى الآن الإنْصاتُ لِصَفير أظافري المأخوذة بِحُلمِها المُتَكرّر، حيْثُ أظْهرُ، بدايةً، في شاطئ. بعدها، تقتربُ منّي امرأة في لباس ممرّضة- يتّضحُ أنّها ليستْ سوى لينا- حاملةً في يدها حقنةً تقولُ إنّها مملوءة بفودكا روسيّة خالصة! ثمّ تُوجّهُ إبرتها نحو ذراعي!

فجأةً، أتنبّه لِما حَولي.

وأُشيحُ بوجهي نحو النّافذة، فما الذي أراه في الأعالي؟

طيورٌ غريبة تحلّق فوق الغابة القريبة، التي جعلت من أولئك الأقزام المساكين أشجارها القصيرة!

رجل يبتسم للعصافير

طبعة أولى، منشورات الجمل، بيروت-بغداد، 2011.

- طبعة ثانية، رَقميّة: منشورات حِبر، 2020.

هذه المجموعة هي في قسمين:

1- أحقن عروق الدراجة بالنيكوتين

2- تربية عاطفية

إهداء:

إلى بِشْــــــر

القسم الأوّل

(من "رجل يبتسم للعصافير"):

أحقنُ عروق الدّراجة بالنيكوتين

جَدّ (1)

في الحديقة المهملة، تَرْفُو الجدّة جواربَ وذكريات. الحفيد يرنو إليها. أمّا الشّمس فتوشِك على الغروب. يتذكَّر الطّفل جدَّه الذي جُنّ على ظهر ناقة، فتمتلئ عظامُه بالرّمل وبالحُداء.

الطّفل قضى ساعاتِ الصّباح متأمِّلاً ما تبقّى من بيتٍ قديم كان للجدّ الذي شَرع في هَدْمِه ذاتَ فَجر، عازماً أن يُقيم مكانه خيمة كبيرة من إسمنت. لكنْ، بعد أن خرَّب مُعظمه، حلّت به لعنةُ السّراب، فمضى لِيَتيهَ في الصّحراء.

الطّفل قضى ما بعد الظهيرة حالِماً بأنَّ الجدران التي دُمّرتْ والخزانة التي كانت تُعابثه بتضييق خياشيمها، والأكْواريوم والأرائك المحشوّة بالقُطن والبروق وبغمغمات الجنِّيات،

كلّها ستعود في ذلك اليوم،

بل فكّر أن الجدّ نفسه قد يَؤوب، تاركاً جنونه وناقته والبِيد

التي يبحثُ فيها عن واحاتِ طفولته.

لكنَّ شيئاً من ذلك لم يحدث،

بل هاهي لَكَماتُ الرَّعد تتوالى عنيفةً وتُهشّم أسنانَ الغسق،

وها الحديقة المُهملة قد اكتظّت جنباتُها

بالخوف

وبالشّظايا.

هجرة

نمشي ونمشي

نمشي بخطى بيضاء

لا توقظ شجرة

لا تقضّ مضجع بئر

نستريح بعض الوقت

جنب نهر صغير شجاع

لا يُجَنُّ إذ يصيرُ ضحلَ المياه

لا يرمي أحداً منا بحجر

نعرف أنّ قمر هذه الأيام سيكون

من ثلج

فالشتاء قد جاءنا

معصوبَ العينين

نتّجه إلى حيثُ تُقرفص حمامة

في ريح مدينة مهجورة

أو، رُبَّما، إلى حيّ خلفي في مدينة

نخر اليأس جدرانَها

نمضي تحت سيول الماء

مخلصين للمطر

لهواء مُسِنّ

تاركين للعواصف أن تهبّ

من القفص الصدري لأمّ

لِلْبرقِ أن ينداح من عَينَي

رضيعها

نغذُّ السَّيْر أحراراً

وإذ يتَخَفّى القمر في كبِدِ طائر

يُدوّن الفلكيون من بيننا

مذكّرات السّماك الرّامح

الذي يتدبّر، دوماً، أمْرَ

إنارة طريقنا

علينا، فحسب، ألا نزعج الأنبياء

النّحاف المنسيّين

في هذه الجَنّة الخرِبَة

المحمولة على أنف الجَبَل

أن نُحاذر التّوقّف على مشارف الغابة

التي تحلّق فيها العصافير

على ظهورها.

دموع القدّاحة

أمسحُ الطّاولة بالإسفنجة-العين

أقول لنفسي: لا تستمرّ

وإلا تــســاقطتْ أهدابُك

وبدا لك النّاس القِصار

أبواباً مُقعّرة

وحَبلُ الغسيل

أنقليساً مديداً، يُعذِّبه

صيّاد مخبول

تبعثُ إليّ جارتي ضحكةً مُشفّرة

كضحكات الجواسيس

أفكِّر: لا شكّ أنّ عينَها

تلتمع بدمعة

ومن ثقب في جيبي

تسَّاقط على الفور دموعُ القدّاحة

ونُثارُ التّبغ

أضعتُ أسناني كلّها

في حرب أفيون سِرّية

وكثيراً ما تركتُ آلام شفتيّ

على نهدَي الجارة

كنتُ، أيضاً، أحقنُ عروق الدّرّاجة

بالنّيكوتين

فتنطلق بي على الجسر

الذي يصل رئتيّ بالسعال الليلي

هذا التّبغ له طعم البارود

هذه القدّاحة حادّة الطّباع

هذه الجارة تقف الآن تحت شمس

غيرِ حقيقية

(إنّها مجرّد حبّة خردل!)

من كأس النّبيذ التي أَفْرَغْت

زحفتْ نمال كثيرة مترنّحة

نحو جزيرة صغيرة منسية

في ظفر إبهامي

سأعتمد، في البحث عن اسمها

على غوغل

جارتي مختصّة في تربية أظافر

الرّوبوطات

في السّير الطّويل على حافة الجُرْح

ثمّ السّقوط على كتف الصرخة

أنا أشتغل على الكمبيوتر

أعيدُ تكوينَ رنينِ عظام الزواحف

باروكَةِ السّيكلوب

والعطسةَ الأخيرة

لابن الرّومي

تهبّ ريحٌ في سِلالها المزامير

وتنتشر زرقة الموسيقى

على فوطة

كنتُ كشطتُ بها الطَّمْي

عن قدميّ

أثناء نزهتي، حافياً،

على ضفّة نهر

تهبّ ريح، تنتشر زرقة الموسيقى

فيُسمع، من جديد، في أرجاء

الغُرْفة، عُطاشُ ابنِ الرّومي!

وإذ يزقو طائر من دخان

في رئتيّ

أخرج، بدوري

لأستردّ حذائي!

في المرّة الأخيرة

لم يُسْعفني الحظّ

كان دكان الإسكافي مُغلَقاً

أمامه صاحبه المَخمور

يرقص و يغنّي

ويتقيّأ المسامير.

مُنذ دهر

منذ دهر وصنَّارتي في الماء

ولَمْ أصطد سوى السّأم.

لا أرى غَيْرَ قوس قُزَحٍ ينزل

وبإبرٍ ذهبيَّة

يُطَرّزُ حواشي الأمواج

ولا أسمع سوى أنفي الذي

يئزّ كنحلة

كلما أفرغْتُ زِقّي.

ثمّ خرج نديمي المساء من البحر

وأقبل نحوي

حاملاً طَيَّ أجفانه

سَمَكاً كثيراً وفي كفّيه

مَحارُ طفولتي!

على شاطئ...

نَمشي على شاطئ مُضاء بالتماعاتِ أرَقنا

والأسماكُ التي لفظها البحر

تركتْ فيه أناشيدها الحزينة ومضتْ

الأسماكُ التي لفظها البحر

ولجأتْ إلى الآبار

كثيراً ما تخرجُ للنزهة ليلاً

ولا نراها

مِروحة

اِبْـقَ في بيتك فلا جديد في الخارج

أتُرَاك تريدُ أن تَخرج لترى المجنون

يتأمَّل في غيمةٍ - مِرآةٍ

نِصْفَ وَجْههِ الأثير لديه

أو لترميَ بِحجر

الخُذروف الخَرِف

الذي لا يكفّ عن الدّوران

أم أنّك تريد أن تلتقط صورةً أخيرة

لِمروحتك المسكينة

التي تفكّكتْ عظامُها

بعْد أن لفظْتَها بلا رأفة

أيُّها القاسي

يا حفّارَ قبور القناني

هكذا تحدّث إليّ طيفُ أوفيليا

وأنا أمضي نحو الباب ومِنْ بعيد

يصِلُني هديلُ حمائمَ

من نبيذ!

مقادير مجهولة

مع الفجر جاءتْ من مغاوِرَ بالشاطئ

حِسَانٌ مُشاكسات

وبأنغام النّايات

شرعْنَ في تهييج أشجارِ

الشَّارع الكبير

في الصَّباح تَوَزّعَ في جنبات المدينة

أطفالٌ من مرجان

ليحرسوا باراتٍ يؤمّها عميانٌ

وخيولُهم

بعد الظهيرة كان من بيننا من أغفى

في سينما مِيالِيشْ فيما كانتْ

سارَة مايْلزْ

في دَوْرِ ابنة رايَنْ تتلقّى الشّتائم

مذعورةً

بُعَيْدَ الغروب ظهرت أشْباحُ

درّاجاتنا القديمة

وبدافع الحنين اعترضتْ سُبلنا

في الليل ربّما تُوجَزُ المدينة

هل حقّاً ستُصبح

في حَجم قبضة اليد

بعد أن عشنا فيها طويلاً

كمقاديرَ مجهولة

في مُعادلات الرّيح

والليالي

عليّ أن أطمئنّ

ذهبتُ إلى المستشفى لرؤية عامر، صديقي الطّبيب.

وهُنالك عرضوا عليّ ميّتاً وجهُه كوكبٌ صغير.

قالوا إنّها جُثّة خالي. كيف لي أنْ أعرف أنّهُم لا يكذبون؟ سأعودُ إلى زوجته!

سألتُها إن سبق لوجه زوجها أنْ كان في هيئة كوكب صغير. لكنّها لم تُجبْ، فقد كانتْ تُدرِّبُ خيطاً على الاقتراب تلقائياً من إبرة أوقفتْها على أنفِها. لقد اشتغلتْ لفترة ما في سيرك!

عدتُ إليها بعد سنة فقالتْ خالُك مدفون منذ أعوام طوال، وعلى خريطة مقبرة الرّحمة هاته، وضعتُ علامة حمراء على قبره.

لكن، إذا كان ميّتاً منذ أعوام، فلِمَ لم تُخبريني بذلك قبل الآن؟

لقدْ كنتَ دائماً إما في بار أو تتنقّل من طابور إلى طابور جديد لتقفَ أمام السّينما أو السّوبرماركت أو حانوت بائع الحلزون... فلم أجد مناسبة لإخبارك بالأمر.

في الواقع، بدا لي كلامُها منطقيّاً.

وعلى أي حال، فحين يموتُ شخصٌ ما، أيكون ثمّة فرق حقيقي بين أن يُدفَن أو

يصبح وجهه في هيئة كوكب صغير؟

بقيت مسألة بسيطة، سأسأل عنها جاري النّحيف: كيفَ ستستطيع الملائكة، في الآخرة، أن تتعرّف على شخص وجههُ في هيئة كوكب صغير لتأخذه إلى الجنّة.

مسألة الوجوه هاته مُحيّرة. فجاري النّحيف، وهو نحويّ، وفقيه، وعالم بخبايا كرة القدم... كان أيضاً مُساعِدَ حفّار قبور. وذات ليلة، هاجمتْهُ مومياءُ زوجته التي يحتفظ بها أسفل السّرير، فماذا فعل؟

نبش قبراً وأخرج منه وجْهاً. تفرّس فيه طويلاً، فماذا رأى؟

الوجْهَ الذي كانَ له هو أيّامَ مراهقتِــه.

وقتَها، سارعَ إلى دفن المومياء، وآلى على نفسِه ألا يقترب، بعدُ، حيّاً، من مقبرة...

يا لي من أهبل! لِمَ أُتْعِبُ نفسي بالتّفكير في مِثل هذه الأمور، أنا الذي استيقظتُ يوماً وقد تكاثف جسمي كلّه في كريّةِ أعصاب، فبقيتُ مجهولَ الهُويَّة (جزئياً فحسب، لأنّي كنتُ، رغم كلّ شيء، أعرف أنّ تلك الكريّة هي أنا).

وخرج أفراد الأُسرة للبحث عنّي في البارات والطّوابيــر. وبعد أنْ يئسوا، وفيما هم يُفكّرون في إعلان الحِداد، كنتُ أستعيد، رويداً، حجمَ إنسانٍ عصريّ. ورغم أنّي عدتُ إليهم في هيئة تقريبية (أي أنّها تُذكّر مِن بعيد بما كنتُ عليه في السّابق)، فقد قبلوني وسُرّوا...

حقّا، ليس التّعرّف على إنسان بالمُعضلة الكبيرة. عليّ أن أطمئنّ.

أمامي شجرة، بجذعها عَلِقتْ أرتال من الحلازين، وخَلفها طابور. سأنضمّ إلى المُصطفّين. هذا هو قراري.

من نصائحِ جدّي ومأثور أقواله

- لا تأبهْ لهمْ إذا

وضعوا عظامكَ تحت المراقبة

أَخْفِ الأجراس في الأعشاش

رُصَّ أحلامك في الأقداح

دُسَّ الكهرباء في الأحجار

فلن يعثروا ضدّك

على دليل

- لا تخرجْ في مُنتصف ليالي الجليد

إِذِ المقاهي وحدها تَجوس الشّوارع

والعسسُ مُغلَقو الأبواب

ولا تَبِعْ حذاءك القديم

أُتْركْه حتّى تعود من سفرك

واسكُنْ فيه

- إذا رأيتَ الجرادَ يغزو رئات الرَّاقصات

وَزُكِمت الغُرَفُ وعزّ الدّواء

إذا رأيتَ مجنوناً يَلفّ صرختَه على ساعده

وأُنثى من طحالب يُضاجعها غريق

فاعلمْ أنّها حربٌ جديدة

تتهيأ في الخَفاء

- لا تُسافر أبداً

إذا أضربَ ربابنةُ البرق

وسرَّعتِ الأرضُ دورانها

لتُدَوِّخ النّمل

وتمّ استنساخُ الرّيح

فهذه كلُّها

من علائم النّحس

- لا تَبِع القناني الفارغة

إذا كان ينبعثُ منها الشّخير

واتّبعْ نصيحةَ أبي حيّان

فلا تنمْ إلا وقُربَ رأسِك حجر

أو حَجَران

وإيّاك أنْ تتركَ أنفاسَك

الاحتياطيّة

في مُتناول غَيْرك

- إذا اقتربتْ منك نملة

ورأيتَ في عينيها صُفرة

وسمعتَ صرير مفاصلها

فاعلمْ أنّها لا محالة هالكة

وإذا رأيتَ الدموع

التي تتهادى على الأعشاب

قد سارعتْ إلى دخول غيرانها

فاعلمْ أنها توجّستْ من خطاك

إيّاكَ ومشية العسكر

- إذا اندسّت السّجائر في شَقّ

حائط

لا تَشُقَّ عليها

لا تجعلْها تخرج من مخبئها

مرغمةً

اِمضِ لتتجوّل بعضَ الوقت

وإذا مررتَ جنبَ جدولِ لُعاب

فحاذر أن تطأَه بِقدمك

اعلمْ أنه تسلَّل مِن سِجن للشّفاه

واسألْ عن بيت المُهندس الذي

اكتشف آبار نفط

في جُمجمته

إنّه عَمُّك

الذي أنجبتْهُ لي امرأة

من الماضي السَّحيق

تعرّفتُ إليها وهي بعدُ

محمّلةٌ بموج الشّمال

في سنةٍ زحفتْ فيها الكهوف

على المُدن

وصارتْ، رحمها الله، في آخر

أيّامها

تَسُوخُ، شيئاً فشيئاً، في الثّلج

المُتهاطل من ذاكرتها

إلى أن اختفتْ كُلّيّةً

- إذا كنتَ في سَفر

ووجدتَ نفسكَ على مشارف غابة

وأظهرتْ لك نبتةُ قُرّاص

لسانَها

فاعلمْ أنّ المثلّثاتِ قاطعةَ الطّريق

تكمنُ للعابرين خلف الأشجار

تأهّبْ

أَخْرِجْ قوسَك

اِختَرِ الأصلبَ من سِهامك

وإذا خلّصتَ النّاسَ من ذلك الخطر

ربحتَ بطاقة سفر إلى جزيرة

جميلة وَشَبِقة

تجدها في استقبالك

عاريةً

جَدّ (2)

على أقدامهمْ التي مشَّطت شَعر الحقول جاؤوا

من كابوس القبيلة كانوا قد نبشُوا دموعاً

ليستعملوها في أيّام الحِداد السَّبعة

كانوا من عشيرةٍ يَشترك أبناؤها دَوماً

في نفس الأحلام

في الليلة الفائتة رأوا في المنام

أنَّهم حلازين

لم يستغربوا الرُّؤيا

رغم أنّ الفصل لم يكنْ

شتاءً

من مستودع للأموات

تُحْفظ فيه جثثٌ إلى أنْ

يَحضرَ الأهل لدفنها، سَرَقوا

جُثَّة صديقهم

غطسوها ثلاثاً في بُحَيْرَة

نَقلوها في عربة من شارع إلى آخر

وفي الطّابق الرّابع للملهاة

أجلسوا الصّديق على أريكة في البَلكون

مُوَلّين وجهَه شطر المَسْبَح

الذي يبدو، من عل، كأنّه غير واقعي

وفي الآن نفسه، بيِّنَ المعالم

عينا الصّديق مُوَجَّهتان إلى أسفل

كأنَّما هو، أيضاً، يتملّى بخضرة الماء

بمرأى أجساد غضّة

لإناثٍ يــَحْــقُــنّ صُدورهنّ

بِقليلٍ من وَهَج الأصيل

الثّلاثة شربُوا في صحة الصّديق

لم يــثْــنِــهم عن ذلك علمُهُم أنّه ميت

بل إنّهم وضعوا أمامه كأساً

وهو لا يدري كم ساعة مرَّت على موته

لكنه يُدرك أنَّ مُجالسيه

نَثروا على وجهه أحلاماً بيضاء

كانوا قد اشتروها – للمناسبة-

من سُوق ليْليّ

يَذكر أنّهم ألبسوه ثياباً

القميصُ جميل حقّاً

لقد نَسجتْه بأسنانها عاقر

كانت قد تبنّت كُوسَاةً ونحلتين

قبل أن تتيه في الحقول

مُلوِّحة للفراغ

بضفائر تعود إلى أيّام

طفولتها

يَذكر آخِرَ مرّة دخل فيها بيتَه

وكَيْف فُوجِئ إذ لاحظ أنّ الأبواب

أصبحتْ من عجين

وكيف أقلع -أمام عينيه-

المَوقدُ بجمراته المشتعلة

ودوّم طويلاً في المطبخ الذي

كان، هو، قد زيّن جدرانه

ببلاطات اقتلعها

من قبور

ما كان أحدٌ، بعدُ، ليزورَها

لكنه، الآن، لا يستشفّ جنب المَسبح

إلا أشكالاً هلامية

فيما جلساؤه يتحدَّثون عن خُودٍ حِسان

يُدغدغ ظهورهنّ النّسيم

عن قطراتِ ماء خضراء

تلتمع على أرومة نَهد

فكيف لِميّت أن يُبصر حتّى

وإن كانتْ ثمّة عين

تُوَشّي جيب قميصه المُطرّز

حتى وإنْ كان حديثَ عهد بالموت

وكانت العينُ نَجلاء

حتى وإن كان في آخر جَلساته

على سَطح الأرض

حتى وإنْ، بين عينيه، كان يَعْبُرُ تابوت

ينوء بحمولته

من الأجراس

كيف لميِّت ألا يتّخذ بين جلسائه

هيئةَ جبلٍ مَنفيّ في جزيرة

ستجيئه عصافير

من أغصانٍ في جُرح

وبمعاولَ كانت، لسنين،

ذاتَ سطوة في المُستنقعات

تَكسُر أحجاره وعِظامه

في البَرد أغفى الأصدقاء

ويَدا الميّت موضوعتان

على قَوس قُزح

انداح، بأناةٍ، من كأسه

لكنْ، كيف لميْت

ألّا يَضجرَ بين الأحياء

والقرقعةُ على أشَدّها

في نوم جلسائه

والمساءُ قد ظهرتْ حَدَبَته

وثمّة أطفال أطلّوا من باب موارَب

ثم فرّوا خائفين

كانوا قد استيقظوا ثم ناموا

ثم استيقظوا، وأخيراً قرروا أنَّهُم

استمتعوا برفقته

كما لنْ يتسنّى لأحدٍ أن يفعل

وأنه آن الأوان ليتخلّصوا منه

تحت جنح الظلام

أيدفنونه، إذاً، في حديقة،

أيرمونه في البحر؟

لا، بل يُمَدّدونه أمام باب

مستودع الأموات

فالبحث عنه، لا شكّ، جارٍ

هذا ما اقترح أكبرُهم

الذي كان قد هيّأَ لَه شاهدةَ قبر

سيتركها تحت رأسِه

إن مرّ أحدٌ بقبره، سيقرأُ على تلك الشّاهدة:

- هُنا ينام نومته الأبديّة

البحّارُ الذي قضى ليلته الثّانية كَمَيّت

ساهراً، يتملّى بأشكال سبّاحات مشيقات

من الطَّابق الرابع للملهاة

الذي كان، أيضا، شاعراً

وكتبَ أبياته الأخيرة

في مدح إبرة بقيتْ، بإخلاص،

ترفو ثيابه إلى أن ابيضّت عيناها

الذي غطس في أعماق بِحَار

ظَهَر في أحلام سفن

شاركَ في تشييد مدنٍ

من مَرجان واشتغل

بمهنٍ أخرى.

الذي، في طفولته،

أنقذَ أراغنَ

كانت، من فرط كآبتِها، قد ارتمتْ

في آبار

الذي لم يَحضُرْ قطُّ

إعدامَ شمعة، وجَابَ قُرىً بعيدة

على صَهوة حصانٍ من

اللوبياء، ثم مات

غريقاً، بعد أن صارع الرّبْو

زَمناً، وفي آخرِ

أيّامه، طال قذالُه، لِعكوفه

زَمناً على صُنْع سروج

من ثلوج، وأصبحتْ له غُـنَّـةُ

من ينفثُ الكلمات

عبر أنفه الزّجاجي،

وشفتان تشتغلان

بالكهرباء

القسم الثّاني

(من "رجل يبتسم للعصافير"):

تربية عاطفيّة

ربّما يكون لي حصان

الفتاة التي أحببتُ وأنا في السّادسة عشرة

في البداية، لم تُبادلني عواطفي

حزنتُ ثمّ نسيتُها

لم أعدْ أترصَّــدُها كلَّ أحد أمام بيت أبيها

حيثُ تصنعُ الكعك

تَدْرُس حَياة الجراد

وتُنْصت إلى أغاني الحاجَّة الحَمْداويَّة

يحلُّ الأحد، فأمضي إلى البار ثمّ إلى

ملعب كرة القدم

لِتشجيع الفريق الذي أُناصره

إنّه دِينامو البَرْنُوصي

أو إلى البار ثمّ رأساً إلى غرفة مريم

التي تبيعُ لي الهوى بالدَّين وفي المُقابل

أُطفئُ الضّوء قبل أن أستلقيَ في سريرها

وأتخيّل أنّها مارية، الفتاة التي أحببت

وأنا في السّادسة عشرة

بعد وقتٍ سئمْتُ لُعبة التَّخيل تلك

وأصبحتُ أضاجِعُ مريم

باعتبارها مريم فحسب

التي تروي لي قصّة حبّ والِدها العسكري

وأمِّها التي قضتْ طفولتها في اليونان

كلَّ يوم أحد

تخرج الفتاة التي أحببتُ

وأنا في السّادسة عشرة

تمضي لتُحيّيَ البحر، ثُمَّ لشراء

مجلّة متخصّصة في وصفات الكعك الجديدة

تتمشَّى على قارعة الطريق تتلقّى

التّهنئة من رَجل يَجوب البلاد بحثاً

عن امرأةٍ أضاعها في مرفأ

يقول الرجل إنه يهنّئها

بمناسبة حصولها على البكالوريا

لكنّي لم أجتز بعدُ الامتحانات، تقول هي

فيخجل الرّجل البدين وينصرف

ويقوم بجولة في رِواقٍ بالسّوق الأسبوعيِّ

تباعُ فيهِ النَّايات

بحثاً عن ناي مسحور

يُمكنه أن يعزف لك تلقائيّاً سيمفونيةً

أو موسيقا أوبرا

لموتسارت لهايدن لمِنْدِلْزُونْ

أن يُغنّيَ لك أغنية

للحاجَّة الحَمْداويَّة

أمّا مارية فتنصرف لتذرعَ أرجاء

جناحٍ من السّوق الأسبوعيّ نفسِه

خاصٍّ ببَاعَةِ الوجوه القديمة ومُساعديهم

من الكيميائين العميان

بحثاً عن وجه شهرزاد ووجه حسناء

من تمبوكتو

ووجه غريتا غاربو

في البداية، لم أكن أعرفُ أنّها

تستعدُّ للتنكّر، كنتُ وقتَها

في الملعب أَصْفِرُ بأقصى جهدي

ضِدَّ الحَكم الذي أَعلن عن ركلة جزاء

ضدّ دينامو البرنوصي

لكنّي، هذا الصَّباح، غِبَّ ليلة اعتقدتُ أنّي

قضيْتُها مع واحدةٍ من أجمل فتيات تمبوكتو

اكتشفتُ أنَّ ضجيعتي

لم تكن سوى مارية، الفتاة التي أحببت وأنا

في السّادسة عشرة

لقد استعملتْ قناعاً إذنْ

بعد سنة من الآن سنتخاصم

بعد سنة من الآن

ستكثُر الدّرّاجات النّاريّة على

الطّريق التي تؤدّي إلى بِرْكَة عَوّا

بعد سنة من الآن

ستتلوّى هضبةٌ من مَغص شديد

والمداخنُ ستتطوّعُ لتحمُّل آلام الولادة

عن الفتيات الحوامل

بعد سنة بعد اثنتين بعد ثلاث

سأكون في غابة بعيدة

لن أكون قد أصبحتُ فهداً أو ببغاء

سنجاباً أو زرافة أو عظاية

لكنْ ستُقيم معي امرأة في كوخ في غابة

أو في كوخ على شَفا حوض

تعيش فيه تماسيح

صغيرة مسالمة تستطيعُ حتّى أنْ

تُصافحكَ بأطراف أذنابِها

هنالك قرب تمبوكتو

سيكون الطّقسُ حارّاً جِدّاً

وربّما سيكون لي حصانٌ عظامُه

من شرار

حصان هادئ جدّاً روحُه

من مسحوق الذّهب

ربّما تكون لي درّاجة

تستطيع بصرير عجلاتها أن تَصنع السّراب

الذي يجتذبُ عابرين كثيرين

هكذا سيُمْكنني أن أستقبل في كوخي

راقِصاتٍ شهيراتٍ

مثل الجوكندة

وأبطالاً في القفز العُلوي

مثل حمُّورابي

بعد سنة بعد اثنتين بعد ثلاث

فثمّة أنفاسٌ باردة تنطلق الآن من عينَيّ

وتُصبح ضبابة كبيرة تجدُها في المساء

قد حاصرت القطارات والأرامل

لذا أسارع بِالوقوف وربّما بعد دقيقة

بعد دقيقتين بعد ثلاث

سأغادر هذه الغُرفة

في طريقي إلى بار مارسيل سِيزْدَانْ، ألتقي

زميلتي في العمل، لا أستطيعُ

تذكّر اسمِها، لكنّها

تدعوني لمعرض لوحاتها

الذي تقيمه في عُرض البحر، بحثاً

عن التّميّز

لا أستطيعُ أن أسبح حتّى هناك، أقول لها

فتُجيب: لقدْ أصبتُ شَعْرَكَ

برصاصاتي

وفي شارع الإربيانة

أجد أعزّ أصدقائي في انتظاري

نمضي لنشرب معاً إنّه ذو سُلطة

في البحر إنّه

ينشغل الآن بتوجيه سِهام البارانويا إلى

أيائل مُتَخفّية خلف عجلات السّيّارات

فيما أفكّر في مُستقبلي

وما سأفعل وما سيحدُثُ لي

بعد سنة بعد سنتين

بعد ثلاث

أُمسك بمقود الركبة

ها أنا جنبك في هذه الغرفة

أداعبك وأُمسك بمقود الركبة

أتيقّن من أنوار النّهدين

من حُرشة العانة

أُدير عَجَلة الرّدف

أعابثك وأقول

أنتِ الآن درّاجتي الآدميّة

تضحكين طويلاً

وتحدثينني عن درّاجة كانت لك

في الطفولة

سينما

خلال تلك الظّهيرة، ونحن في طريقنا إلى سينما مِياليسْ، ما إن سُمِعتْ صفّاراتُ الإنذار وطلقاتُ رصاص، ما إن بدأتْ سيارات إسعاف تناغي جرحاها، حتّى أوشكت أَيْزُومي، اليابانية العجوز، التي كانت تمشي أمامنا، التي كنّا نعلم أنّ عظامَها مسلاتٌ رفيعة، و أنّ لها قدمًا داهية تعرفُ كيف تخضرّ وسط الأعشاب ـ أوشكتْ أن تتهاوى كَرْبا، رغم أن أصوات الصّفّارات وزعيق السّيّارات كانتْ تتناهى إلينا من فيلم على وشك الانتهاء في سينما مياليس.

ما زال أمامنا وقت قبل أن يبدأ الفيلم الذي سنشاهد.

قبالة السينما، بار مياليس، في مدخله

حرّاس

يتطلعون إلى الدّاخلين

بعيون من كحول.

أصطحبُكِ لنشرب كأسا

10 خطاطيف يحلّقن فوق رأسينا. تسألين كيف تعرّفتُ إليهنّ أوّل مرّة. تعارفنا، ذات صبيحة بعيدة بين شجرتي كافور، كانت الشَّمْس تُوجِّه إلينا نظرات مُحتدّةً،

والطّفلة-السّاحرة، بِقُرْبي، تُخرج من سُرَّتِها كريّات زجاجية وترمي بها إلي.

فهَلْ أحدِّثُك، أيضا، عن ذلك الجزء من البَحر

الذي كنتُ أسبح فيه، بالسّرّ، رغم أنّهم كانوا قد اتّخذوه متحفا

لعظام الغَوّاصين القدامى؟

والآن، أَنْهي كأسكِ حتى لا يفوتنا الفيلم.

وحين ينتهي العرض ونغادر القاعة، نرى قُدّامَنا أيزومي مُجَدّداً. لكنّها في هذه المرّة، تمشي مرحة، خفيفة، متناسية للحظاتٍ أخواتِها اللائي تركتهنّ في قريتها البعيدة، هنالك قرب طوكيو. بل ها هي قد بدأتْ تغنّي، بفرنسيتها المُتكسّرة:

«إذا كنت موسيقياً أيّها الهيكل

العظميّ

فأقِمْ عندي

أقم عندي إلى أنْ

إلى أنْ

تكتسي باللحم

إذا كنْتَ موسيقياً أيّها الهيكل

العظمي

فلا تبق في المقهى

في هذا البرد...»

وها أنتِ ترددين معها:

«إذا كنت موسيقياً أيها الهيكل

العظميّ

أيّها الهيكل العظميّ...»

ريح قرصانة

في شارع السِّنْجاب، رجلٌ سُرِقتْ درّاجتُه يَركضُ وراء اللصّة التي تُدوّس وتدوّس فتمرّ بمحاذاة عمّال البلديّة الذين يكنسون الرّصيف ويَكشطون عنه صفيراً وشَيباً كثيرا.

لِسوء الحظ، فذلك الرّجل هو أنا.

أقول لنفسي إنّ الفتاة لا شكّ لطيفة وفقيرة. لو أنّها طلبتْ منّي الدّرّاجة لرُبّما كُنْتُ أعطيتُها إياها وعُدْتُ إلى البيتِ في الباص أو حتّى على القدمين! فلْأَنْس الأمر، إذنْ!

يُمكِنُكم أن تَشهدوا على أنّي لا أُعَقّدُ الأمور... لقد مضى الزمن الذي كنْتُ أهربُ فيه من البيت إلى قمّة برج لا تستطيعُ أمّي الارتقاء إليها لإقناعي بالعــودة إلى البيت أو بأن أرْعَى عصافيرها على التّلة. من تلك القِمّة، كنتُ غالبا ما أترقَّبُ الكسوف الذي كثُرَ الحديثُ عنه وَقْتَها، وأحياناً أشكّلُ قصائد من دخان عيني، حتّى إذا انحنيتُ لأرى ما يحدث في الأسفل، ألحظُها هي، مارية، مُعلّمةُ الإسبرانتو لجرحى الحُبّ، ترفعُ رأسها نحوي وتُغَنّي: «أيّها الفتى المائل/ حاذِر السّقوط!» لقد أحببْتُها وأنا في السّادسة عشرة. في البداية، أهْمَــلَــتْــنــي. لكنّ قَــلْــبَــهــا...

وها أنا أمضي تحت رحمة ريح قُرصانة تخْطف قُبّعات العابرين المُتعبين. لقد قرّرْتُ العودة على القدمين. فكّرْتُ في شُرْبِ بضع كـؤوس في بار مارسيل سِيزْدَان، لكنْ ليس في جيبـي ولا درهـمٌ واحد. أنا إنسان يثق في مقدرات الخيال. لذا أغمضُ عينَيَّ وأقول: يا فمُ ابلعْ خمرتك... وما هي إلا لحظة سريعة كدمعة وجيزة حتّى شعرت بالانتشاء!

مارية هي الآن عشيقتي. أسمع قطرات المطر تقرع رأسي وأنا أمشي. لو بَقِيَتْ لي الدّرّاجة... أمضي في سبيلي، وعينِي تُنْحي باللائمة على عينِي... ثمّة رجل يسيرُ أمامي، وكلّما الْتفَتَ، يتكسّرُ في عُنقه فنجان. يا للصَّـوْت المُطّرِد الباعث على القلق... لكنّ كلّ هذا سينتهي، فبعد دقائق، سأكون في البيت فأنعَى الدّراجة لمارية، ثمّ أمضي إلى النّافذة لأطِلَّ على الأشجار.

طقسٌ رائق

فيما كان الثّلجُ، بأصابعَ ناعمة، يُغلق جفون السّناجب في الغابة القريبة، كانوا على شاشة التّلفاز يتبارَوْنَ في سباق الألف متر. كان ذلك خلال مساء بديع: ثلجٌ خفيف وفراشات صغيرة تنداحُ من بين نهدي العشيقة مارية التي ستخرج لتشكَّ المحاقن في خصر كلّ سهل مريض.

وتبارَيتُ مع أكبر عدّاء في الغابة. ركضنا باتجاه البحر، ومررنا بمُسِنّين يعتلون أشجارا، فكان رأسي هو السّبّاقَ إلى الشّيخوخة. هكذا اشتعلَ شيباً. بَعْدَها وجدتُني قرب شجرتي الجميلة، التي بدأتْ تؤدّي، بحسّيّة صريحة، رقصةً فريدة، فيما شَكّلتْ أوراقُها أوركسترا سرعان ما بدّدَها ألمٌ هبّ رفقة ريح رخيّة. وإذ اقترَبْتُ منها اندلعَ لهيبُ الشّيب في أوراقها، هي التي عرفتُها يافعة ومؤخّرا أسميتُها مارية!

أردتُ أن أتخلّص من بضع دمعات كانتْ دائما تطلّ من بين أهدابي وتلتمع لتدُلَّ عليّ الدّائنين الذين يترصّدونني خلف أعمدة الكهرباء. يا للدّموع المُصابة بمرضِ الوشاية. قُلتُ أمضي إلى البيت وأجلبُ أرغن الرّجل الذي يرعى، أحياناً، عصافير أمّه على التّلّة، وذلك لأعزف لحناً حزيناً. لكنّ قرار منعِ البكاء في الغابات كان قد عُمِّم عن طريق التلفزيونات.

وها إنّي أراهُم على الشّاشة يتسابقون، فيلهثون ويُصْبِحون شيوخاً يعتلون أشجــاراً، وها جِرار البرد تتحطّمُ على رؤوسِهِمْ.

لقدْ قرّرتُ الكَفَّ عن الاهتمام بهم، لذا أطفأت التّلفاز وخرجْتُ، يتبعني أُرغُــنٌ قَــلِــق. كيفَ لي أنْ أُرَوِّحَ عنه؟ سأتمشّى حتّى التّلّة، حيثُ تنتظرُني عصافير أمي.

داهمني الصّباح

داهمني الصّــباح بحفيف أجنحته فخِلْتُني مُجدّدا في غابة، لكنّــي كُنْتُ في سريري. فكّرْتُ في إيقاظ العشيقة لإخبارها بما حدث البارحة، ثُمَّ أرجأتُ الأمر... وفي طريقي إلى المحطة، لاحظتُ كيف يبذر الثّلج قلقه في عيون العابرين.

في البــاص المُتوجّه إلى وسط المدينة، قضيتُ بعض الوقت أتملّى لوحةً مرسومة بتجاعيدَ من مختلف الحجوم والألوان على قفا الجالس أمامي. يا للألوان المتناسقة! يا للجسد الأنثوي الباذخ! يا للشّبق الذي يَضِجُّ به جسدُ المرأة الممدّدة على جنبها عاريةً على السّكّة الحديد! ومن شَعرها، انداحتْ فراشاتٌ نحو النافذة المفتوحة جنبي. ثمّ ها أسنان المُستلقية تُعضعض شفتيها... ولن أعرف أبدا لمَ قرّرتِ الانتحار.

أخرجتُ هاتفي المحمول الصَّغير، وهتفتُ لمارية. قُلْتُ لها إنّ مارية الأخرى، الشّجرة، أصيبت البارحة بحروق. قُلتُ أتمنّى ألا يمرّ أيّ قطار قبل أن أنزل من الباص. قلتُ الفراشاتُ تمرّ ملامسةً جبيني وعبر النّافذة تغزو المدينة. لكنْ إذا نتجتْ عن ذلك كوارث فسيتحدَّثُون عنها في التّلفزيونات!

وسُمِعَ صوتُ انكسارِ ظُفرٍ، فأَخفى الرّاكبون أيديَهم في جيوبهم. وكلٌّ من عنّ له أن يخلع حذاءَهُ لِيريحَ قدميه يجدُه، بعدها، قد امتلأ بعرق غزير، بارد، بارد.

لذا، فحين نزلتُ، كانت قدماي تسبحان في فردتي حذائي.

أمضي نحو مكتبي. في الأعالي، غيمة ميتة ينهشُ لحمها غراب. ليس هذا بالفأل الحسن. لكنْ، ما هَمّ!

نصــرٌ مؤكّـد

أثناء مرورنا وسط الأشجار، أَزَحْتُ

ستائرَ عن أعشاش، وابْتسمْتُ

للعصافير، فأبْدَتْ

بَرَمَها... مع ذلك

أنا فرحان.

مارية التي لم تنم جيّدا

تُخرجُ من جِزْدانِها أقلاماً

ثمّ ترسم عيون سيكلوبات

وأنوفَ مُهَرِّجين

على طرف قميصي!

مع هذا، فأنا

في أتمّ السّرور.

كما أنّ ظلي بدأ يثوخ

في طمْيِ المرآة، ولن

أتمكّنَ من إخراجِه منها قبل

الغروب،

وثمّة عجوز بقربي وقفتْ

وبدأتْ ترقص

فاندلق من أكمامها شلال حبر أسود

على حذائي الرّياضي الأبيض!

مع هذا، أنا فرحان فرحان:

ذلك أنّي سأمضي إلى الملعب على الفَور

وأنّي واثِقٌ من أنّ النّصر سيكون

من نصيب دينامو البَرْنُوصِي

في مباراته ضدّ أخطر فريق للهياكل

العظميّة

في كلّ العُصور.

أنا واثق

واثق تماما من النّصر!

سأُعَرِّج على البار

هذه الابتسامة التي رسمتْها شفتا العشيقة وهي تتحدّث عن السكين الهائم على وجهه في ضواحي المدينة

ربّما تكون من باب استحسان طريقتي الجديدة التي تُسهّل نُطْقَ كلماتٍ كانتْ تستعصي على الألسنة فلا تُلفظ إلا بعد أن تَدْمَى الشّفاه

وعلى العموم تكون البسمة نتاج مصادفة محضة من الصّنف الذي يجعل قطرات النّدى تختلف عن قطرات النّبيذ عن قطرات

الحمّى التي تنضح بها جباهٌ وأزهار

في بار مارسيل سِيرْدانْ أسأل جاري المخرج المسرحيّ أين اختفيتَ خلال الأمس الجميل هل كنتَ

تحت سريرك ذي النّوابض المجدولة من أعصابك

إنّه رجل يحترس من كلّ شيء خاصّة من الذين يجلسون مطْبِقين عيناً وفاتحين أختَها خاصّة أيضاً من مُدْمِني النُّشوق

مع هذا حدّثْتُه عن شجرتي مارية التي تعاني من حروق

وأدهشني أنّه لمْ يكُنْ حانِقاً عَـلَـيَّ ثمّ طفرت الدّموع من عينيْ عصفورة حطّتْ على طاولتنا

إنّها ليستْ سوى العشيقة مارية فهذا هو شكلُها حين تمتزج بحفيف أوراق الشّجر

ثمّ تأكّدَتْ من أنّي سأحضُر للغداء فعادت من حيثُ أتت وبقيتُ على كرسيِّي أرفو

عباءة الوقت بإبَر من عظامي

مع هذا فإنّي أجِدُ صعوبات في فهم كلّ هذه الصّيغ الرّياضية

التي تلتمع على جبين الصّباح أمّا في المساء فسأرعى عصافيرَ أُمّي على التّلّة

وبَعْدَ أن سدَّدتُ الحساب طلبَ منّي النّادل القصير رقم هاتفي أتوجَّه نحو البيت لا

أدري لِم أركِّزُ جهدي في الطّريق على محاولةِ تخيُّلِ أنف شكسبير

ثمَّ تذكّرْتُ محاولتي الأخيرة للخلاص

من وظيفتي كنتُ سأصبِحُ ممثّلاً وأرتاح لكنّي

لحْظةَ اقتربْتُ من يوليوس قيصر لأهوي عليه بالسّكّين

و يقول حتّى أنت يا بروتس فأنا كنتُ ألعبُ دور

هذا الأخير بقيتُ واقفاً مشدوهاً ذلك أنّي

حين أردتُ أن أُخرج السّكين اكتشفتُ أنّي قد أضعتُه

وأُغمي على المُخرج فلُذْتُ

بالفرار ولَمْ ألتقه مجدّداً إلا قبل

ساعات في بار مارسيل سِيرْدانْ

أَمضي في طريقي أرى عمود ضوء

مُحاطاً بأناشيد الضّباب أُحيِّي دولوريس الجارة الإسبانية

اللطيفة التي تُطِلّ

من الطّابق الثاني فتكشف

لي عن وجوهها الخفيّة التي من بينها وجه غابة

ثمّ دخلتُ إلى

البيت جاءت مارية بالغداء وكنتُ أنتظر

أن تشرع في الحديث عن السّكّين وفي الابتسام لكنْ

ها هو الهاتف يرِنّ

آلو نعم

أنا النّادلُ القصير يُجيبُني الصّوت

عَرَفتُك من لثغتك هل من خدمة

أريد أن تكتُب لي رسالة بالإسبانية إلى حبيبتي برناردا سمعتك

مرّات تتحدّثُ إلى السّيّدة دولوريس بهذه اللغة

أقول مُقاطِعا يمكنك أن تعتمد عليّ سأعرّج على البار هذا

المساء في طريق عودتي من التّلّة رفقة العصافير

قربَ السناجب

العشيقة غائبة منذ أيام

الغرفة نائمة منذ ساعات

مُطوّقةً بسياج من لُعاب جدرانها

وأنتَ أمام الباب ولا تَدْخُل

وكُنْتَ وقفتَ أمام باب المسرح طويلاً

ولم تدخل ثم جاءك الخبر

بأنَّ الممثل القصير الذي كنت تنوي

أنْ تُجْرِيَ معه حواراً لصحيفتك

اختفى مِنْ علَى الخشبة بعد أن

تهشّمتْ أوفيليا

وتناثرتْ قِطعَ زجاج

قالوا إنَّ لِلْمُمثل القصير أنفاً

من الهمهمات

قالوا إذا أُغْمِيَ ثانية على الشَّفَق

سيظهر من جديد

الموتى ساكنو القناني

ويهطل المطر

وتبرز تجاعيدُ الحلزون الهرم

ليس لازماً أن تكون هامْلِت

لِتُشفقَ على أُوفيليا

ولا داعيَ لأنْ تركلَ الباب بعنف

من أجل أن توقظَ الغرفة

وإن جاءتك من الداخل أصواتُ

ارتطام الروبوطات

فمعلوم أنها تنبثق

من رواية الخيال العلمي

المفتوحة على المنضدة

قُرب قَطرة الحبرِ المَهيبة

وأجراسِ النّحو التي ترنّ

على رأس كلّ ساعة

لا تنس أن تكتبَ إلى الغائــبــة

ياه! إنك تتطلّع إلى الأشجار

ياه! كم السّهر طويلٌ على الأغصان

وفي مدفن الألوان النّافقة

ياه! في الأعالي غيومٌ من السّلوفان

تخشخش في الريح الباردة

لا داعيَ لأن تركل الباب

يحدث أن تنام الغرف

أن يتناثر أحدهم شظايا

أن تفرَّ امرأة من تعاسة رجل

ومع ذلك تستمرّ الأرض في تلميع شعرها

اِمْضِ بروح المتشرِّد التي تتقمَّصك

واقْضِ الليل في واحدٍ من جراح الغابة

قرب السَّناجب الهاربة

من الغِـيـتُّوَات

رسالة

لا تقلقي فأنا لستُ تعيساً قضيتُ ليلتي الماضية في كَنفِ الغابة حواليَّ فضاءٌ مدهش تتماوج فيه أنفاسُ السَّناجـب وقبل لحظة أمكنني أخيراً الدّخول إلى الغرفة أتطلّعُ من النّافذة فأرى الفجرَ كما عرفناه يتقدّم على قدميه القديمتين يتصفّح مُسَوَّدة اليوم القادم يُدخل بعض التّعديلات ربّما على كمّية الأمطار المُتوقَّعة في الظّهيرة هذا أمر مستعجَل فقبل أيام شُوهِد النّوتيـة وهم يُهدّدون القطرة التي أفاضت النّهر

لا تقلقي فالكلمات التي تحيا في رئتيّ آمنة كُلِّية والدّموع النّائمة على كتف الجدار قبالتي تفوح منها رائحة الدّموع مِذْوَدُ الدّراجة أيضا مملوء وخالي الذي كان سيُعْدَم لكثرة حروف العِلّة في اسمه عَفوْا عنه في آخر لحظة وكان منزعجاً من عطل طالَ أنفَه لكـنَّ حاله تحسَّنتْ بعد أنْ قُرِعتْ في كتفيه دفوف العافية

ساعاتُ هذا الصّباح متساويةُ الطّول لم تسقُط ولا ريشة بين فكّي الجمرة المتربِّصة ببُغاثِ الطّير

كلّ هذا وأنا أفتقدك بالأمس مضيتُ نحو مكتب البريد في طريقي قابلتُ الرّجل-المسمار سرّني كثيرا أنّه لم يَصدأْ كما ادّعى بعضُهم ورأيتُ الباعة المتجوّلين مصطفّين في طابور طويل يَحدِجون السّحب بنظراتٍ رهيبة

حين وصلتُ كان السّعاة يوزّعون التّلغرامات بالتّساوي على فقراء المدينة واحدٌ

منهم هَمَسَ في أذنِي اِبْتَسِمْ العالمُ جميل وكلُّ شيء سيمفونية تاسعة وأراد أن يعطيَني تلغراماً لكنّ يديّ كانتا متشابكتين خلف ظهري فيا لساعي البريد الطّيب

كلّ هذا وأنا أفتقدك ودميُتك اللعوب لم تَعُد تحشرُ خَطْمَها في سُرّتها كما أنّي أعتني كثيرا بالألوان الخمسة التي هي أطفال اللوحة المعلّقة في غرفتنا وحتّى أثناء النّوم أحتفظ تحت القناع بابتسامتي

لا تقلقي أنتظركِ في هذه الغرفةِ المُعتمرةِ طاقيةً من حَبَب

احتفال

كنتُ قد دعوتُ الميكانيكي الذي هو علاوة على كونِه صديقي شاعرٌ كتبَ العديد من القصائد في مدح العجلات والجاذبيّة إلى العشاء فاليوم تحلّ من جديد ذكرى القبلة الأولى التي تبادلتُها مع مارية لذا أنتظره الآن أمام بابي

وقفتُ إذن أمام الباب ومارية في الدّاخل قد انتهتْ من تهييء العشاء

كم هي مُتعَبة فقد قضينا المساء في السّرير في حال من العنفوان لا تعـــرف الفتور

وبعدها مضتْ لتنسج للعُشْبِ أحلاماً مُكتظّة بحشراتٍ من حرير

وفيما أنا أنتظر أمام الباب رنّ هاتفي المحمول الصّغير في جيبي

آلو نعم

مساء الخير لا تنتظرْني لن أستطيع المجيء فسائقو الباصات قد أضربوا منذ بضع ساعات

إنّه صديقي الميكانيكي الذي لن يمكنه الوصول إلى بيتي وهكذا لـن يحضر الحفل الصّغير بالإضافة إلينا نحن الاثنين سوى أخت مارية وصديق الأخت التي قدّمته لي قبل شهور

قد تقولُون ادْعُ الودودة دولوريس لكنّ هذا غير ممكن

أنا أمام الباب أشعل سيجارة وبعد لحظة وجيزة كنملة رضيعة تنتشر في الجوّ آلامُ

أسنان وثمّة مصباح صبور أمام دكّان التبغ المقابل لبيتي يدوّن بالأشِعّة أحلام المدينة

لا يمكنني أن أدعو دولوريس إذ سيكون عليّ إن فعلت أن أحتمل أيضاً حضور زوجها جلّول العسكري المتقاعد الخرِف الذي خدم في جيش فرنكو وهذا ما لا أستطيعُه لكوني طبعاً أكره فرنكو

إلا أنّي أكاد أجنّ من الضّحك حين أرى جلّول في الفجر يقوم بتمارينه لابساً بزّة جنديّ الجيش الإسباني القديم يمشي بخطى واثقة موقَّعة مُردّدا أُونُو دُوصْ أونو دوصْ أونو دوصْ

ثمّ يختفي عن ناظِرَيّ بعد أن تكونَ قد فتّنته مطارقُ الرّيح

أدخل إلى الغرفة حيثُ ينتظرونني متفكّرا في أمر الباصات وكيفَ أنّها حُوصِرتْ مرّة من طرف قبيلة مُدجّجة بالحِراب كان أحدُ أفرادِها قد مات مدهوساً من قِبل باص وفي مرّة أخرى حاصرتها المومياءاتُ مُفترِسةُ الحديد

في هذه المرّة الأخيرة ركضتُ مبتعداً عن المحطة وحين توقّفتُ كانت سَرِيّةٌ من أنفاسي قد انسحبتْ مدحورة إلى كهف بعيد

أدخل ونتبادلُ الابتسامات نقضي وقتنا مصيخين للموسيقى ثمّ لتساقط نُثار الفضة من الأكتاف وبشكل خاصّ نُطري أختَ مارية البارعة حقّا في الرّقص ثمّ أقترح أن نسمع أغنية لكلود نُوغارو الشّاعر ابن تولوز

بعدها تناهى إلى أذنيّ من جارورٍ صفيرُ قواقع كما يحدثُ دائما حين أكثِرُ من الويسكي ثُمّ أطللنا جميعا من النّافذة على الحديقة التي ستقضي فيها الليل سروة متسكّعة لا يعلمُ أحد

إلى أين سَتُطوّح بها العصافير

عند بزوغ الفجر

IV

عيونٌ طالما سافرَتْ

طبعة أولى، منشورات بيت الشِّعر في المغرب، 2017.

- طبعة ثانية، رَقميّة: منشورات حبر، 2020.

يَغمسون رأس المهرّج

نعم، تمّ الأمر كما فكَّرْتِ فيه

فقد ذهبتُ إلى المصبنة

وجلبتُ ثيابنا

وفي طريق العودة، رأيتهم يغمِسون رأس المهرّج

في رغوة الضّحك التي كانوا

قد ملؤوا منها جردلا كبيرا

وها أنا هنا، أُهْدِيكِ - فيما أنتِ تهيّئين

الغداء-

البَارثينون وقوسَ آخيل ومُبرهَنةَ أقليدس

وجبلَ البارناس ومخطوطةً لإسخيلوس

حتّى تكونَ لكِ آثارُ خُطى

على ترابِ حدائقِ

اليونان القديمة

- أنا، حديقتي قَدَمِي وأظفارُها

أزهارُها-

وبعد هذا سأُردفُكِ خَلْفي على

درّاجتنا المُطهَّمة

ونمضي نحو بيتنا القديم الذي كنّا

قد سكنّاهُ زمناً ثمّ تركناه

وكنتُ، كلّما سكِرْتُ تحت سقفه،

تُشعشع عظامي من تحت الجلد واللحم، بوميضٍ

منتظم أصفر وأخضر وأحمر

وذاك كان يُضْحِكُنا كثيراً إذْ يُذَكِّرُنا

بلعبة البليياردو الكهربائيّ!

الآن، بعد أن ندخلَ مُجدّداً إلى ذلك البيت

فهو قدْ يُباغَتُ كما

تقولين، لكنْ كُونِي

متيقّنةً مِنْ أنّنا سنشعر في غُرفه بنفس

الإعجاب بِـهَـيْـنَـمَـة النّمال التي

خَلْف أحد جدرانه

كانتْ دائماً تتشكّى من الأرق!

بل إنّه سيحتضن بحنوّ حتّى درّاجَتَنَا

وَيُعامِلُها ككائنةٍ حلَّتْ فيها رُوحُ

إلهةٍ قديمة

كائنةٍ جِسْمُها من معدن

ولِمِقْوَدِهَا

بَرِيقْ!

قُبيْل الغروب

قُبيلَ الغُرُوب، نَفَضَت الحُقُولُ

عَن ظُهورِها قُطعان المَواشي، فلم تَذَرْ

لها من أثر

هكذا، لم يَبْقَ في جنباتها الذّهبيّةِ الأعشاب

سوى بعضِ الثُّغاء الخفيف

الرُّعاةُ عادوا حَزَانَى

وأرادوا الاخْتِفاءَ عن الأنظَار، فدَلَفُوا إلى الزَّرائب

وَحْدَهُ الرَّاعي الأحمق بَقِيَ واقفاً وسط القرية

مُتهلِّلاً، يَعزف للرّيح

مُتَرَجّياً

أن تجلبَ بناتِها شبيهاتِ الدِّبَبة

حتّى يرتعبَ منهنَّ الأطفال المتحلِّقون من حوله

فيضحكَ

من قفزاتِهمْ وصياحِهمْ

ومِنْ رَفْعِهِمْ لعقائرهم بنداءِ

أمّهاتِهِمْ

بحر أسود

قارِبُ النّوم يَمْخُر بي عُبابَ بحرٍ أَسْودَ يُبْعدني

عنْ غُرفتي في هذه الليلة الشَّتْوية

الموجُ العاتي يتقاذفُه

سيوفُ البرقِ، أيضاً، تَهْوِي

في الأعالِي، بلا رحْمة

وخَوفي يتركّز في حاجبيّ!

لكنْ، فوق رأسي، أنصافُ الطُّيُور

التي بقيتْ حيَّةً بِمُعْجزة

تَضعُ رُضّعاً في مُهود

وصَرَخاتِهِمْ في صناديق البَرْد

وَتَعِدُني بحياةٍ جَديدة

حَالَمَا أستيقظ

مِن هذا الحُلم العنيف!

أسلاف

في هذا البيت، في زمن قديم، تطايرَ شَرَارٌ كثير

من جَسَد جدّ، بعد أن ارتطمَ رأسُه

بسقف قبّعته

سكّانُ هذا البيت، من أجدادٍ أكثر قِدَماً

كانُوا شديدِي التّديّن

واتّخذوا إِلَهاً البُركانَ المقدَّسَ الذي

أصبح في مكانه الآن

فُرْنٌ كبير

أنا، خلال هذه الليلة، في هَذا البيْت نفسِه

أستمرُّ في كتابةِ تاريخ السُّلالة

فَيَدْلِفُ إلى غرفتي ناطقونَ باسْمِها من كلّ

العُصور

يتجمّعون في جانب من الغرفة، فتميلُ تحت ثِقَلهمْ

يركضون إلى الجانب الآخر، فيشعرون

أنّه يَمِيدُ بهم

وهكذا، أنا أُؤَرِّخ لهمْ

وَهُمْ يُمَرْجِحُونَنِي

لا يُخِيفُنِي إِلَّا شيْءٌ واحِد

زُرْقَةُ هذا النَّجْم - وقد كان

صديقَ طفولتي

ولطالَما حرص على إضاءَة طريقي

أثْناءَ عودتي ليلاً من السّينما -

هِيَ بالتّأكيدِ مَرَضِيَّة

لقد سَاءَتْ حالتُه كثيرا

هذا ما أكَّده لي

طبيبٌ مُخْتَصّ في الجهاز التنفُّسِيّ

وعالِمُ فَلَك

وما هَمَسَتْ لي بِه امرأةٌ في بُسْتان

تبيّنَ لاحقا للشُّرطة السّرّية أنَّها

إمّا زرقاءُ اليمَامَة شخصيّاً

أو من سُلالتِها...

الشُّرْطة السِّرِّية!

يحدثُ أن يَحْدِجَني أفرادٌ منها

فَأَحْدِجُهُمْ

أنا لا آبه بهمْ

وفي هذه اللحْظَةِ، لا يُخِيفُنِي إِلَّا شيْءٌ واحِد:

أنْ يَهْوِيَ النَّجْم صديقي منذ الطُّفُولة

واهنَ القوَى على هذه الأرضِ الحزينة

فيما أبقى أنا واقفاً هنا

غَيْر قادرٍ على أنْ أفْعَلَ مِنْ أجله

شيئاً

نُنزِل قِرْميداً من العربة

نُنزِل قِرْميداً من العربة فيما

على كُومَةِ الرَّمل القريبة

نَحلةٌ عَطُوف تُزْجِي لنا نصائحَ بالأزيز

إنْ نُطبِّقْها تَتقوّ عضلاتُنا بالتّأكيد

فنحنُ نريدُ أنْ نبنيَ مأوىً للعجوز

الَّتِي مرَّتْ بنا مترنّحةً في الشّتاء الماضي

واختفتْ في حَقْل العَدَس

مرّتْ بنا آهِ مرْزْرْ...رَتْ

مرّت بنا مرْزْرر...رَتْ

هكذا غنّينا لكِ يا من ترنّحْتِ في الشّتاء الماضي

وأنتَ أيّها الماضي، يا مُقوَّسَ الظَّهْرِ، يا أَدْرَدُ

لقدْ أَتْرعْنا جيوبُكَ

صُوَراً وأسْنانَ حليب

وأنتِ يا مُدَرِّسةً كان رأسُها

يُؤلِمُها في الأصباح خاصَّةً واسْمُها

كان يبدأ بالجيم

تَرَكْنا لكِ ما تيسّر من هَأْهآت

ونَمَشاً كثيراً

كلُّ نمشة لها مفعولُ حبّة أسبرين

كِرامٌ نحن وأطفال وسعداء

ولم نعد مغروسين بين نباتات الحُرَّيقة

كما كُنَّا عليهِ في واحدٍ من أوائل

أحلامي

نمدحكِ يا مُترنّحة وكم وددْنا

لو دغدغنا إبطك الأيمن

فقد عَرَفْنا أنَّكِ جدّتُنا بعد أن سمعناك ذاتَ ليلة

تُعلّمين رُضّعاً كيف يصطادون شُهباً بالشِّباك

وقيل إنّكِ ذاتَ سهرة كنت تُربّتين

على حدبة الرّاقصة

فيما كنّا نَنفخُ في الهَرْمونيكات

نَنفخُ ونَنْفخ

نَنفخ فيها لتبقى مُعزّزةً ولا تَصْدأ

فَيُلْقَى بها في غياهب السّجون

ننفخ ونُغَنّي: مرّتْ بنا آه مرْزْزْ...رَتْ

مرّتْ بنا مرْزْزْ...رَتْ

وهكذا إلى أنْ ننتهي من البناء وَوَقْتَها

سنُقيم حَفْلاً

يحضره الباعة المتجوّلون والمساكين

وراقصة حدباء

وابنُ السّبيل والمُدَرّسة بِصُداعها

النّصفيّ

وكذلك الوجودُ والعدم

والتّلميذات اللطيفات اللواتي فتحنَ قلوبهنّ

لِلسَّيَّارات الصّغيرة الحزينة

التي وُلِدتْ

بلا عجلات

أعزفُ على هرْمونيكا خياليّة

غُيُومٌ داكنة تَسْري في الأعالي مُتَجَهِّمةً

كأنّما هي بِدورها مُتعبةٌ وضَجِرة

هذا ما قلته لنفسي وأنا أسيرُ في هذا الاتّجاه ثمّ

في ذاك

إنّي حائر، وهذا يَجعلني أضحكُ وأعزف على

هَرْمونيكا خياليّة

حقّاً كانتْ هنالك سهرةٌ على شاطئ المدينة الهادئ

لكنَّ ذاكَ كان البارحة

وحقّاً كان هنالك تمثال

يَنْحَتُ فلاَّحين وأبقاراً في قرية

لكنَّها قريةٌ تنأى دائما في الأصباح

عمّن يتّجه صوبها

وكثيرٌ من المدفونين فيها ماتوا

جرّاءَ سقوطهم عن سُطوح

لذا فأنا أُحرّكُ كتفي السّاخنة

أغذّ السّير صَوْبَ الزّهرة التي اكتسبتْ شُهرةً

لديَّ بعد أن ترافقَ عِطْرُها وَقَلَقي

في طُرُقٍ وفي العديد

من محطّات القطارات

سأجلس قليلاً قربك أيتها الزّهرة

مثلما يجلس إنسان قربَ قلبه

وأستعيد أصباحاً كنتُ قضيْتُها وأنا طفل

على شاطئ المدينة هذا الذي أرى الآن جانباً منه

هنالك خلف الأشجار

آه! في تلك الأيّام كانت الكلمة العليا في هذا الشّاطئ

لجرادة

وقد انقلبتْ في السّنة الماضية

حوريّةَ بَحْر!

وفي انتظار الوصول إلى زهرتي، هذه نصيحةٌ منّي

إليكَ أيُّها العابرُ بقربي

إليكِ أيَّتُها العابرةُ جنبي

لا يَدلِفَنْ أَحدٌ منكما إلى هذي الحديقة المتوحّشة

التي هي الآن قُبالتي

إن شاء ألا يُكْسَرَ له ضلع أو يَلتمعَ دَمٌ

على جبينه

ففي جنباتِها عِشْنا زمناً شقاوةَ طفولتنا

نتحارب بسيوف من صُنعنا

وفي فترات الهدنة نَصْفِر مُقَلِّدين موسيقى

بعض أفلام الويسترن ثمّ نبدأ

في تصويب أحجار إلى أيٍّ منّا

كان يقبلُ أن يَعتليَ شجرةً ويتقمَّصَ

شخصيَّةَ غُراب

كَبرنا الآن طبعاً لكنّ أحجارَنا ما تزال

على نَزَقها

أما كلّ ذاك الصَّفير المُنغّم الذي كنّا نَصدح به

فلا أعرف في أيٍّ من أصقاع الأرض

تلتقطهُ الآن آذان

ولا في أيّ البلاد يُطفئ شموعاً

أو تحسِبُه كلابٌ سائبة

مُوَجَّهاً

إليْها

أصعدُ مِن قعرٍ بعيد

كنتُ قد تركتُ رسالةً قبل أن أمضي لأغرق

أن تحيا غريقاً: تجربةٌ أثارتني

منذ أن قرأتُ صفحاتٍ في كتّاب:

"كيف تصبح برمائياً في خمسة أيام"!

لكنَّ العيشَ تحت الماء كان يُنذر

بأنْ يكون قصيراً

وَوَحْدَها رغبتي في العودة لتصحيح

تعابيرَ في رسالتي تلك، أنقَذَتْني

إذ جعلَتْنِي أَصْعَدُ بوثبةٍ من

قعر بعيد

الآن، وقد عدتُ، ها أنا في غرفتي

أنعمُ بالهناء العاديّ الذي يشْعر به

أيّ شخصٍ في حالته العاديّة

تحت ثيابه الأليفة، بلا موج

يحيق به

إنّه لَمَجْنون حقّاً

من يُفكّر في أن يعيش

تَحْتَ جِلْد

البحر!

قَدَمٌ مَنْسِيَّة

كان عندي كتابٌ نادر: "كيف تُصبح بَرمائياً في خمسة أيام". أبي أحرقه لأنّه، حسبما قال، لم يكن يحبّ السّلاحف وأشباهها.

إثْرَها، غادرت البيت مُغْضباً، وتخفّيت شهوراً في تنهيدة امرأة.

ثمّ نفختُ في صَبيحة فصيّرتُها بالوناً لعبتُ به زمناً وعثرتُ على أقدم طُحلب في التّاريخ تحت قدمٍ قديمة جدّا ومنسيّةٍ في حقل، فتركتُها تَركل ذلك البالون وتُنجِز المراوغات. قلتُ في نفسي لعلّها قدمُ أبينا آدم التي كان ركل بها تفّاحةَ الجنة ليُصَيّرها بالوناً وهي حقّاً تستحقّ أن تكون قدم لاعب كرة قدم مُحترف يُهاجم ويُسَجّل الإصابات في الجنّة.

ثمّ عُدت إلى البيت. وفي اليوم نفسه أصلحتُ ذاتَ البين مع العائلة. أَدْهَشَنِي، فَحَسْب، أنّ القِطّ لم يَبْقَ منه غيرُ شبحه. وفي الفجر المُوالي، كنتُ في وسط المدينة مع الذين يقذفون أحجاراً صوبَ حارس السّاحة التي خصّصَتْها الحكومة لانتحارِ المجانين.

هذه المغامرات، لِعِلْمكم، حُفِظتْ في أرشيف الرّيح، هنالك خلف جبال الهملايا.

أنا الآن

أنا الآن في قرية جدّي

أقتعد كرسيّاً صغيراً تحت حائط الجامع القديم الذي

يتدلّى حواليه صبّار كثير

وثمّة كلاب تقضي قيلولتها في ظلّ كومة تبن

فيما تتحادث جماعة المقامرين تحت شجرة

خلف الجامع

بأصوات خافتة ومتوتّرة

عن عبد السّلام بائع الكَيف

وكيف اعتقله الدّرك في الصّباح

وكيف كانت الومضات تنثالُ من شَيب رأسِه

قويّةً

وتتناثر في الجوّ متأجّجةً

أتُرَى كان ذلك من خوفٍ شديد

أمْ من حِقْدٍ عنيف

أمّا أنا فكنتُ أيضاً قدْ قامرتُ ذات صباح

بحصان صغير

وسَاعَتَها كانتْ أنغامُ جازٍ تتنامى

في أذني اليمنى

وفي اليُسْرى كان يُسْمَعُ حدّادون

وهم ينهالون بمطارقهم على

حَدَواتٍ وخسرتُ حصاني

الصّغير

وها أنا تحت حائط هذا الجامع القديم

أتابع قراءة رواية

روايةٍ رهيبةٍ عجيبٍ أَمْرُهَا

ياه!

ما أكثر قتلاها!

يَوْمَ جئْتُ

أنا كنتُ قد جئتُ إلى قرية جدّي هاته

في قطارٍ بطيء، وطيلةَ الرّحلة

كنتُ أترصّد ظهورَ تلك الصّقور في الفضاء

أعني الشّواهين الخمسة المزهوّة بتلاوين مناسرها

والتي قال عنها صحافي أمريكيّ في الهيرالد تريبيون

إنّها أَلِفَتْ أنْ تَتْبَعَ قِطاراً حتّى يَصِل

إلى مشارفِ نهرٍ

قُرْبَ غابة في بنسلفانيا

لكنّ القطار الذي استقلَلْتُه يَوْمَ مجيئي إنّما كان ماضِياً

صوب مرّاكش

(فمنها، أُكْمِل، عادةً، إلى قرية جدّي)

لذا، لم تكنْ هنالك صُقور، وإنّما وجه

يُشبه المسيح

يهتزّ بلا توقّف، من وراء الزّجاج، قبالة وجهي

وكلاهما هائم في خيالاته

وينضح بالعَرق!

يا مُقَشَّرةَ الدِّهان

تُزْعِجُني قَصَّةُ شَعْرك يا نجمة

إنّ لها رائحةَ نعجة مُبلَّلة

لا أحبُّكَ يا قمرَ هذه الليلة

فأنت لا تتفوّه إلا

بكلماتٍ نابية

ومِنْ حُسْنِ الحظّ أن الذين يحشِمُون بِشِدّة

هُمْ إِمَّا صُمّ

أو يَغُطّون في نَوْمِهِمْ

أمّا أنتِ يا مُقَشَّرةَ الدِّهان

يا ذاتَ الجدرانِ المُصابة بِالهذيان الرُّعاشيّ

يا عجوزاً مُعَلّقة

تُثْلِجُ مِن أَخْمَصِ قَدَمَيْهَا

يا غُرْفَتِي

فَجَوْفُك بَحْرٌ بَارِد

ماؤه من دُخان سجائري ونظراتِ

تعجُّبي

وأنا، متى استطعتُ أن أُغَافل

بَرْدَك، سأهجُرُك وأمضي

منزلقاً على ابتساماتِ حمائمَ صديقَة

حتّى هونولولو

ففي هونولووولو

القدّاحاتُ الجَميلات

تُبَادِر للرّقص للوافد الجديد

والمدافئ الكهربائيّة تعيش صامِدةً

وتموت واقفةً

وإذا شعرتَ بالغربة في هونولووووولو

يمكنُك، بحركةٍ من رأسك

أنْ تُحيِّيَ نفسك، فتشعرَ بدفءٍ

إنسانيٍّ عظيم!

حقّاً، قد يحدثُ في هونولوووولو

أَنْ أبِيتَ ليلةً ما في فندق ناقصِ

التّدفئة

فتُطِلَّ عليّ القُشَعْريرَة بعينيها اللمَّاعَتَيْن

من النّافذة التي أَكُون قدْ نسيتُ

إغلاقها جيِّداً

لكنْ سَرْعانَ ما ستلْحَقْنَ بي

يا حليفاتي الحمائم

وبضرباتٍ من مناقيركنَّ ذواتِ

البأس والبسمات

تُكَبِّدن عصابات البرد اللعين

أفدحَ الخَسائر

حميمّة

عن خَدّ شَجَرَتِي اليافِعة

التي تحرس باب حديقتي

أَنْفُضُ غبارَ النّجوم

فيما أزهارٌ تَتَسَلّى بعزفٍ خفيف

على آلةٍ ما، أَحْدُس وُجُودَهَا

ولا أراها

وأنتِ تستحسنين عزفها

لقد مرّتْ علينا ساعاتٌ منذ أنْ حلَّ الليل

وفجأةً: هذا الشّفقُ الذي

يَنْداحُ من قنّينتنا الأخيرة الواقفة

على الطّاولةِ، فارغةً منذ ساعات!

شَفَقٌ ينداحُ منها وينتشر

ويلفّ قامةَ السّاهرةِ جَنْبِي

المضمّخة بضحكتها

في هذه الليلة النّاشِفة

إلا من عرقِ

نَحْرها!

شؤون عائليّة

ماتتِ الخالة الكبيرة، بعد عُمر مديد، وبعد انقطاع المطر

الوشوم التي كانت تزيّن ظاهر كفّيها

أصبحنا نراها على

سقف غُرفتها

مُهْرَتها الصَّغيرة لَبِثتْ على دُهْمَتِهَا

الطّائر الذي قضى في رُفْقَتها أيَّامَها الأخيرة

ومات معها أيضاً

بقيتْ منه رفرفةُ جَناح

تجوسُ تحت السَّقف ووحدَها ابنةُ الخالة

تراها

ابنة الخالة، الحَرِيصَة

على ابتسامات صغارِ الأُسْرَة وكثيراً ما تنقشها

على خواتم

ونحن الذين حملنا التَّابُوت ومضينا

صَوْبَ المقبرة سيفوتنا

البيع والشّراء في السّوق الأسبوعي

لكنْ سَتُرَافِقُنَا المُهْرَة الصَّغيرة

وتَنْسُجُ لنا الأماني

بِالْحَمْحَمَات

بِذِرَاعَيَّ اللتَيْنِ طَالَمَا...

بِذِراعيّ - اللتيْنِ طالَما حَمَلَتَانِي

حتّى بابِ بيتِنا

حين كنتُ أتْعَبُ من إحصاء الكهوف

إذ إنّ هذِهِ من هِوَايات شبابي –

أسدّ الطّريقَ في وجْهٍ فتىً شِرِّير

كانَ يُقْبِلُ راكضاً ويَنْوِي

أن يَكْسِرَ أغصانَ شُجَيْرة خُزامَى

تشتركُ في مِلْكِيَّتِها

سَبْعُ جرادات

أُفْلِحُ في صَدِّهِ فينكصُ على عقبَيْه ويَختفي

وأسمعُ هَمْهَمَاتٍ تتنامَى إلى أُذُنَيّ

متسارعةً

وتنِمّ عن قلق أكيد:

إِنَّهُنَّ الجرادات السبع، عابساتٍ

بالتّأكيد، يُحَلِّلْنَ واقعة الهجوم تلك

من كافّةِ

أَوْجُهِهَا

سأَسْحبُ من دخانها وأنفث

يُريدُ هواءُ هذه اللحظة أن يَتَخَلَّى عَنِّي

أنْ يتوارَى خَلْفَ هَذِهِ التّلّة ويأخذَ معهُ أفكارِي

لِيَجْعلَهَا تُخَشْخِش

ويستمتعَ بذلك، فيما أنا

أَخْتَنِق

وأزِيدُ اختناقاً!

آه يا عزيزي الهواء المُخاتل

إنَّ مَسْعاكَ سيبوءُ بِالْفَشَل

فأنا الآن سأشعلُ سيجارة

وسَأَسْحَبُ من دُخَانِها وأنْفُث

ثمّ أسحَبُ

ثمّ أَنْفُث

وهكذا إلى أن يتغلغلَ بين حنايَاك الدّخان

وتزرقَّ دواخلك

وتتقهقر متبدِّداً

وتصيرَ أضحوكةَ

ثاني أوكسيد

الكربون!

شمسٌ صغيرة

يَتَطَلَّعُ إلى شَمْسِ هذا الصَّبَاح

إنَّها صغيرةٌ ما تزال، يقول في نفسه

من الخطأ، ولا شكّ، أن تكونَ قد اعتُمِدَتْ

في هذه السِّن المبكِّرة

شمساً فِعْلِيّة.

إنَّه يراها الآن مُجرَّحة الخَدَّيْن

مُعَفَّرة الجبين

يَسْألُ: هل عُدْتِ مُجدّداً إلى شَقَاوَتِك

وتَجَرَّحَ خدّاكِ في مُشَاحَنَات

وتَدَحْرَجْتِ على أتْرِبَة؟

ويسمعُهَا تقول:

لا، بلْ طاردَتْنِي غربانٌ معدنيّة

وحاولَ أسْرِي ماسُونِيّون لهمْ وجوهٌ

مِنْ حَجر

ولجأتُ إلى هنودٍ حُمْر

يَصْخَبُون في حَانَات...

يتابع طريقَه إلى المَقْهَى

الَّذِي يشربُ فيه، في العادة،

قَهْوتَه الصّباحيّة

هو فرح، فقد سمعَ كلامَ

الشَّمْسِ-الطِّفْلة،

وبعد لحظات، ومن ألقِ عينيه

سيرسم لها صوَر أطفال من سنّها

لتلاعبهم

حتّى يحينَ أوانُ

غروبها!

وأصبحتُ سيّد السّاهرين

كنتُ صيّادَ سمك

وكنتُ غنيّاً أو فَلْنَقُلْ

إنّه لم يكنْ ينقصُنِي شَيْء

ثُمَّ ساءتْ أحوالي، بعد أن عشقتُ

حياةَ الليل

بغوانيها بِنبيذِها بِحُرُوبها

وأصبَحْتُ

سيّدَ السّاهرين

وحسِبُوني جُنِنتُ حينَ بدأتُ أُرَى في منتصفاتِ

الليالي

ومعي شِبَاكي التي صِرْتُ أُلْقيها

إلى أعلى، لَعَلّي أصطادُ

ابتساماتِ نُجومٍ

أوْ همهماتِ غيومِ الليل

أوْ حتّى حصاناً مُجَنّحاً لطيفاً

يَحْملني على ظهره

ويَمْضي بي في رحلاتٍ عجيبة

أَقصّ وقائعها، في يوم ما، على أحفادي

القادمين!

وجهكِ يا غريبة

حَمْحَمَةُ أَرَاغِن

بَدَأتْ، تحت تأثير أبخرة النبيذ

تتشبّه بأحْصِنة،

أنغامُ جَاز،

جيتارة تتجهّم للحظة وجيزة

ثمّ تبدو طلْقة الأسارير،

سجائر مرتعشة

تُشعلها قدّاحاتٌ زائدةُ المَرَح،

وجهكِ يا غريبة

ذُو الابتسامات الأليفَة،

وهذه السّيجارة التي قَضَتْ بِلا نار

إذْ سَقَطَتْ بين مُكَعَّبَات الثَّلج:

إنها بدايةُ ليلة جديدة

على رِسْلنا

نسوقها

إلى حتفها!

المُعلَّمة تُزَيِّنُ بَدْلتها

المُعلَّمة تُزَيِّنُ بَدْلتها بِطَائر

في حجرة الدّرس تقول إنّ المعادلات

اختفتْ فجأةً من رأسها حين كانت تسبح

في البحر

تلميذةٌ قالتْ: ربّما أكلتْها الأسماك

فقلنا جميعا: ربّما، رُبّما

بِمُشْطٍ طويل حَمَلتْهُ إليها الرِّيح

تَفْرُقُ المعلّمة شَعْرَها من الوسط

لكنَّ من يصفّق منّا أكثر ممَّا يَجب

سيُحْكَمُ عليه بالطّواف سبعَ مرَّات

حول المجنون النَّائم

قُرْبَ محطَّة البنزين!

خُطوات

ها الليل قد انتصف

وها أنا أمشي في نومي

ممسِكاً بيد طفولتي التي تَطْرف

بعينيها العنيدتين

فيما ترنيمةٌ تتصاعد

من منقار الغراب صديقي

الحالمِ في غابة شَعري

أمامي هذا الدّغل الكثيف

وهذي الطّريقُ شبه المُظلمة

لكنّي أتقدّم بعزم

صوبَ حقلِي الصّغير

لأزرع فيه بُزورَ

رُؤًى

فاتنات!

أتهيّأ للإبحار

مشيتُ تحتَ صفير غيمة

كانتْ تتلهّى

بتتبّع شريط ذكرياتي

والقرويّة التي كانتْ عشيقتي

ذاتَ يوم في بيدرٍ ما

ظهرتْ بدورها خلف نافذة بعيدة

باسِمةً ومحاطةً بالعصافير

باسِمةً وتنقُر

على طبلة أذن الريح الرّصينة

يا عشيقتي يا عشيقتي

كوني لي خيمةً

على جبل الكهرباء

بهذا رفعتُ عقيرتي وأنا، في غُرفةِ

نَومي، أتهيّأ للإبحار

في كأسٍ غريبة!

غريبٌ أَمرُ هذا الحقل...

غريبٌ أمر هذا الحقل

إنّه متجهّمٌ على الدّوام

وهذا النّاي

الذي ليسَ سوى بلعوم مديد

وهذي البئر التي حفرناها

أيامَ المُراهقة

وها قد وَلَدتْ قُمصاناً ووزّعتْها

على حاملي الدّلاء الهائمين

غريبٌ أمر هذي المداخن

المهجورة على السّطوح

حين ننظر إليها بعيوننا التي

طالما سافرتْ

رفقة لقالق

الطّفولة!

قَرير العين

لامُبالياً أتقدّمُ بين الأشجار في هذه اللحظة التي تخفّفتْ مِن كَيْفَ ولماذا... إنّها لحظةُ إغفاءة المطر. وها الجدول الأنيق الذي بالكاد خرج من الطفولة، يُربّت على خدّ سلحفاة، يَلْحسُ زَبَدَ جُفونِها.

أُلوّح بيدِي للحمامة التي دَوّختْ صّيادي المنطقة، أَصْفِرُ لأرنبٍ ذاهل، وَقَفَ تحت شجرةٍ يمسحُ عَرَق جبينه، وأُلقي بالسّلام على البِرْكة التي شكّلتْها مياهُ الألم... وليست عظامي بالحزينة فهذا نَشيدُها، أمّا القناني التي تركتُها في بيتي لتحرُسَه فهي تتنقّلُ في أرجائه بأقصى الحَذر، وليس مُحتملاً أن تقع اصطداماتٌ بينها...

وسطَ الدّغل إذن أمضي، باسِماً في سِرّي من غمغماتِ صيّاد أحبطتُ مساعِيَه بصفيري.

حانةٌ

حانةٌ تُطِلّ على بركة صغيرة، قُرْبَهَا

شجرةٌ تُحسن حمايةَ الطِّفل

الذي يصِلُ راكضاً من جهة البحر

يُطارده خُفًّا أبيه الغاضب

حانةٌ، يحدثُ أن أُطِلَّ من نافذتها على الليل

وهو يمضي نحو الشّاطئ

مُرَدّداً أغنية بحّار

حانةٌ، يحدثُ أن أطلَّ من نافذتها والظّلام يهبط

فأرى العصفور الذي كان يلعب

الذي كان يَجذبُ تلّةً من ذيلها

يُسْدِلُ ستائرَ الحقل

ويأمر الأعشاب بالنّوم

إنّها حانة القرصان، البعيدة

عن صخب المدينة

حيث، هائِئاً

يشيخُ النّبيذ

في مساَمّي

خِرفان الليل

جوّ سبتمبر الجميل يتشرّبُ الضوضاء القادمة من وسط المدينة. من نافذة بيتي، تبدو لي سفينةٌ تُبْحِر. إنّ لها شَكْلَ قوقعةٍ كبيرة. والهضبة القريبة، كَأَنّها أضحتْ شفّافة، فهي لا تحجبُ عنّي البحر. لقد اقتعدَ سطحَها العَالي الشّخصُ طويلُ الشّعر نفسُه، وهاهُوَ يقوم، كالمعتاد، بحركات توحي بأنّه يقطف غيمات ثمّ يعصُرها وبعدها يُطلقُها لتعود إلى الفضاء مثلما حمائم. حين التقيتُه ذاتَ ليلة، قبل سنة، فوق صخرة تشرف على البحر، قال لي إنّه يُسمّي نفسه سيزيف الجديد. كانت الأمواج لحظتَها خرفانا مُلْتهبة المزاج، ما تنفكّ تهرب، ثمّ تعود، ثمّ تهرب من جديد. وكان كلٌّ منّا قد جاء إلى ذلك المكان، بقنّينة نبيذه وكأسِه، ليَشْرَبَ ويُشْهِدَ البحْرَ على انْتِشائه... وتحادثْنَا، فاكتشفْنا أنّنا، في بدايات الشّباب، درسْنا في نفسِ الثّانويّة، خلال نفْسِ السّنواتِ، وأنّنا، في نفس الوقت، أحببنا نفس الفتاة...

كُلُّ تلك المُصادفات، والخرفان المائيّة لا تَني تركُض وتركُض... ثُغاؤها يتشرّبُه جوُّ سبتمبر الجميل.

عَامِلُ الكَهْرَبَاء ذَاكَ وَزَوْجَتُه

عَامِلُ الكهرباء ذاكَ وزوجتُه اللذَان كانا

يشربان كثيراً في الحانة الوحيدة

على شاطئ البحر،

يُرَدِّدان أغانِيَ لجِيمْ مُورِيسُونْ،

ويقولان، بحزن، إنهما ربّيَا سفينةً صغيرة

لكنّها أبحرتْ ذاتَ ليلة

ولمْ تَعُدْ

رأيتهُمَا أنا وشخصٌ ذو جبينٍ أحمر، قبل

لحظات، واقِفَيْن

بداخل سكّة القطار

يحيط بهما الخلاء من كل جانب

دَفَعْنَاهُمَا بكلّ قِوانَا

ولم نستطعْ زحزحتهما

الشّخصُ ذو الجبين الأحمر أخذ أحجاراً

وبدأ يرميهما بها

ليجعلهما يخرجان من بين القضيبين الأسودين

أما أنا فإنِّي أركُض وأركض

وبمجرّد ما أرى أناسا آخرين

سأصرخُ بملء صوتي

طالباً النّجدة

أهذه هي الغرفة؟

كنتُ في رحلة بحريّة وهاج البحر كثيراً وَعَمّ الخوف

بين الرّاكبين، وها أنا الآن

وحيدٌ في غرفةٍ بابُها - هذا ما أذكره بصورة

مُبهمة - يبدو كما لو أنّه كان يتّسع

ثمّ يتقلّص رويداً رويداً.

أَذْكُرُ، بشكل غامض، أنّ جدرانَها،

من الخارج، كانتْ ملساءَ جِدّاً

وباردةً وكأنّها مُنحنية وكأنّ الأصابع

تكادُ أن تثُوخَ فيها!

وحيدٌ أنا في هذا المكان المُغلَق الذي

لا أدري حقّاً كيفَ حَلَلْتُ به!

سَلْوَى،

أهذه هي الغرفة على الشاطئ التي طالما

التقينا فيها خلال

ذلك الصّيف القديم؟

سَلْوَى سارِعي بالمجيء وقُولي لي

أَهُوَ التّيار الكهربائي مُنقطعٌ هنا؟

أمْ تُراكِ لا تستطيعين المجيء

لأنّ هذه ليست أصلاً غرفة،

لأنّها، ربّما، حُوتٌ حقيقيّ

سأقيمُ في جوفِهِ زمناً

وبعدها يُلْقِي بي

على ساحل

جميل؟

الجسرُ السّاخنُ ظَهرُه

الجِسْرُ السّاخنُ ظَهْرُه بسببِ نَزْلة برد

المصابةُ عُمُدُه بالحمّى

الذي قَطَعْتُه قبل ساعة

هو الذي أخطِّط الآن لأبحاثي

المتعلّقة بمنشئه وبالمناطق التي جُلبتْ منها

موادّ بنائه

أبحاثي التي سأعاين من أجلها براكين

ومقالعَ أحجار وامتداداتٍ

رمليّة

اذهبي الآن لتنامي، سلوى

ما دمتِ سترافقينَنِي منذ الصّباح الباكر

في رحلةِ بحثي الطويلة عَبْرَ جِسْرِنا

العتيد

الذي تُسَخِّنُ ظهره نزلةُ برد

وتَمْرُق عبره أرواحُ أسْلاف

مُنْدسّةً في قواقع

كنتُ لِلتّوِّ قدْ وَصَلْت

كُنْتُ للتّوّ قَدْ وَصَلْتُ إلى تلك المدينة

التي لم أَزُرْها منذ صيف قديم

وكان جرّاحونَ على شاطِئِها

يُخْرِجون من جُمْجمةِ غريقٍ جِيءَ بِه من عُمْق اليَمّ

طحالبَ وقواقع

وبِمُجرّد ما يُعيدونَها إلى البحر

يَقِفُ ذلك الغريق ويُكْمل إغلاقَ جُمجمته

بيديه

ويُحَيِّي الحُضُورَ بإشارة

وَبَعْدَها يأتي مُمَرِّضُونَ بغريقٍ جديد ويُمَدِّدُونه

على سرير الجراحة

فيما يكونُ سابقُهُ قد رَكِبَ

درّاجته النّاريّة ومَضَى نحو بيته

حَيّاً ولكنْ بِلا لَحْمٍ يَكْسُو عِظامَه،

بلا لحْمٍ ولكنْ بِروح مَرِحة...

أصدقاؤه سيحتفلونَ بعودته هذا المساء

وسيلاحظون أنّ لَهُ في الرّقص

هَزّةَ كتفٍ

لا تُضَاهَى

كان يمكنكما أن تُشَكِّلا زوجاً رياضيّاً

هذه الصّورة بهذي الصّحيفة

هي لِبَطلةٍ في القفز بالزّانة كانتْ قد أصبحتْ

حبيبتكَ خلال صيفِ سنة

البكالوريا

أنتَ كنتَ تُحْسِن تسلّق الحبال

وَكَمْ مرّةٍ حَدَثَ أن حملتْكَ الرّيحُ وترنّحَتْ بك

وَرَمتْ بِكَ في قَعْرِ وادٍ سحيق

وكانتْ غُيومٌ تَفتِلُ أنْفاسَهَا حبالا

وتُدَلِّيهَا صوبَك

وكنتَ تتسلّقُ حَبْلاً وتعودُ في سلام

إلى عالَمك المألوف

وهي، البطلة في القفز بالزّانة

كانتْ، كُلّما ضَجِرَتْ على هذه الضِّفّة مِن حياتها

تمضي بزانتها إلى جُرْفٍ شاهق

وتقفز إلى الضّفّة الأُخرى

حيثُ مُهِمّتُها تنظيمُ صفِّ الأنهار الشّائخة

أمام مأوىً للعجزة...

بَطَلٌ في تسلُّق الحبال

وبطلة في القفْزِ بالزّانة

كان يمكنكما أن تُشَكِّلا زوجاً رياضيّاً

ومع الفَجْر تقطعان المسافات

جَرْياً، لكنّكما

انفصلتُمَا

والآن حين يجيء الفجر يجدكَ

غاطّاً في النّوم

فيما تُنهي الفودكا العجوز

في عروقك

ماراتونَهَا الليْليّ

وأنتِ بلباس البحر

ذات صباحٍ، وأنا بعد طالب وفي الثّامنة عشرة

كنتُ في مقهى على الشاطئ

وكان ثمّة سبّاحون يدخلون إلى المياه متقافزين

شاعِرِينَ، ولا شكّ، بالرّعشة

وكنتُ أقرأ أخباراً في صحيفة

لكنْ سرعان ما استأثَرَتْ بانتباهي تَنُّورةٌ قادمة

فارغةً من صاحبتها

مُرْتَفِعةً عن الأرض وأطرافُها تهتزّ إذْ

يعبثُ بها النّسيم

وبَدَتْ لي

أثناءَ قُدُومِها متهاديةً مِنْ خلفِ تلّةٍ صغيرة على الشّاطئ

أليفةً لعينيّ

مسلوبَ الإرادة، نهضتُ

ومضيتُ باتّجاه التّلة:

خلفها، كانتِ الابتسامةُ العريضة على

وجهكِ وأنت بلباسِ

البحرِ، سَلْوى

لَم نكن، قبل تلك اللحظة، قد تبادلنا غير نظراتٍ

في ردهة الكلّية

وأخرياتٍ بباب صيدليّة

وقلتِ: تنّوري

أرسلتُها لتأتي بك أيُّها الخجول

وها هي الآن عائدةٌ

نحوي

غريبٌ في تلك المدينة

كنتُ غريباً في تلك المدينة ولِذا

آثرتُ أنْ أَحْلِقَ شَعْرِي في المَحَلّ المُسَمّى

"عند حَلّاق الغُرباء"

أصبحتُ وصاحبَه، بمرور الأيّام، صديقَيْن

ومرّة أغلقَ مَحلّه واختفى أيّاماً

وحين عاد، أهداني قنِّينةَ فودكا

قال إنّه جلبها لي من بلدة ما في روسيا

فقد سافر إليها خلال الأسبوع الأخير لأنّ لَه

خالةً هناك

نَفَقَتْ لها نَعْجَات

ومضى لِيُعزِّيها

ذلك كان من جميل المصادفات

ففي تلك الأيّامَ بالضّبط كنتُ قَدْ

بدأتُ أدرسُ الرُّوسِيّة

على يَدِ امرأة جميلة

امرأةٍ كانَ بمقدورها ألّا تستقبل

الموسيقى بأذنيها إذا هي شاءتْ

وأن تَشُمّها شمّاً

وكنتُ أمضي إلى مَحَلِّ صديقي من حين لآخر

وكان يحدُثُ أن يتسلّلَ أمواتٌ

بين زبائنِهِ ليقُصّ لهمْ شَعْرَهُمْ

وقدْ أخبرني بأنّ واحِداً منهم

كان في حياته عُضواً

في الأكاديمية الفرنسية

لَمْ يحدُثْ أن تحدّث صديقي بأمرهمْ لأَحَدٍ غيري

ولا وَقَعَ أنْ تكلّمتُ عنهمْ إلّا مع

نفسي

ولا ندري كيف نُمِيَ الخبرُ إلى البوليس

الذين عمدوا إلى دَسِّ مُخبرين حول المقابر!

قبل أيّام كنّا، ثلاثتُنا، نتعشّى معاً

وبدا لي أَنّ الحلّاقَ صديقي

لو تزوّج من الأستاذة الجميلة

لَشكّلا أُسرةً سعيدة

ولأنجبا ولا شكّ أطفالاً

عجيبي الذّكاء

أمّا أنا فرَبٌّ بيتٍ منذ سنين طوال

أستيقظُ باكراً في كلّ يومٍ وأمضي إلى الغابة

لأخطبَ في العصافير

وفي المساء، يحدث أن أَقضي أوقاتاً

في "حانة القرصان"

أو أمضي إلى السّاحل

لأتفقّد المغارات!

رموز للصّيرورة

قال لزوجته في الصّالة

هذا البرنامج التلفزيوني عن معنى الصّيرورة

يستثير غضبي

قالت الزّوجة إنّ أولئك المتفلسفين الثّرثارين

يعقّدون على النّاس الحياة

ويُذكّرونها بعمّها المجنون

الذي كان يُحاوِل أنْ يَشدّ الغيوم إلى بعضها

بالبراغي

وقالت إنّها حين كانت تلميذة

سألتها أستاذة عمّا هو العدم

فبدا لها هذا الأخير في منتصف الليل

محلّقا فوق دولاب الملابس

في هيئة تجعيدة!

أفلا تكون، إذن، هذه كلُّها رموزاً للصّيرورة، تساءل الزّوج:

هذا الجورب المثقوب مثلا

المتروك فوق وسادة؟

أو تلك النّوبة العصبيّة التي أصابتْ

بالأمس ذبابةً في المطبخ؟

ولِمَ لا تلك الصّورة الشّعريّة التي استحمّتْ بالنّبيذ

في قصيدتي الأخيرة؟

له ذاكرةٌ حَيّة

كان يَمْضي عبر شارع العظام

تحت مطرٍ من ابْتسامات الأشباح

يُخفي جيّداً صرختَه السّرّية

لا يحبّ الحياة كثيراً

لكنّه لا يكرهها

لقد وُلِد ذات يوم اشتدّ فيه الحرُّ

على المجانين

وهو يعيش الآن قرب بركةٍ

يسمعها، أحياناً، تحكي القصص

لجراداتٍ من حَوْلِها

له ذاكرة حيّة: رأى مرّة سيجارةً في

فم عابر بقربه

فتذكّر أنها السّيجارة نفسُها التي

سبق أن رآها في حلم

يتذكّر أيضاً أنّ جدّته، قبل وفاتها

أوصتهُ خيراً بعلبة النّشوق

التي تعاني من الخَرف

وبالرّياح الفقيرة

والدّجاجات الثّلاث

النّاسكات

يتمشّى على رمل قديم

دونَ رغبةٍ منه

تحوّل، خلال الليل، إلى طائر من نار

وجابَ العديد من الحدائق والحقول

وحدث أن سبّب حريقاً في حقل

تناول به كرزاً

وَخَزه ضميره بِشِدّة في أثناء الليل

لكنّه في الصّباح، جاء إلى مكتبه

في هيئته المعهودة، باستثناء

أصابعه التي كانتْ عُقَلُها

قد أصْبَحتْ جَمَرات!

إنّه يتمشّى، الآن، على رملٍ قديم في ذاكرته

مفكِّراً بالظُّلم الذي حاق به

بعد أن انكشفَ أمره

وحكموا عليه بأن يُسْجَن

في قفصه الصّدري

سِنينَ عددا

العابرة

العابرة التي كادتْ ترتطم بي بُعيد الظّهيرة

وأنا أخطو نحو عتبة هذه الحانة

هي من كنتُ أسمع قرقعة عظام ظهرها

في الفجر الفائت وأدعوها الحسناء

وذات مساء شتائيّ قالت إنها لا تنساه

عاينّا معاً البحر

وهو يحدِّب ظَهْرَهُ

ويتمطّى كَقِطّ

البارحةَ كان لنا لقاءٌ في غرفتي الصَّغيرة

حيثُ الغواية دائما تنتصر، وبيُسر،

على الرُّشْد المسكين المُصاب

بفقر الخيال

وصببنا لنا شراباً

ثمّ خرجنا لنُواسي النّهر

ذا المياه الحزينة!

بسبب أوراق ميّتة

كان ثمّة خفْقُ أجنحة

يتناهى إليّ من حديقة تتمدّد فيها فتاة

على مصطبة

الفتاة كانت رفيقةً لي في قسم ما

بالابتدائيّ

وفي تلك الأيّام البعيدة، كانت قد أُصِيبت

بالنّحول بسبب أوراق ميّتة

سقطت من شجرة

على ركبتيها

ثُمّ التقيتُها بعد ذلك بزمن

في محطّة قِطار

وكانتْ تدخّن كثيراً

قالت يومَها إنّها في طور التّحوّل

إلى سيجارة ضخمة

سيجارة ذات فم وعينين

ذات أذنين ونهدين

وهي الآن على المصطبة

تبدو مديدةً وملفوفةً بالبياض كأنّها فعلاً

سيجارة ضخمة

فيما يتصاعد من ذاكرتها

دخان أبيض ورمادي

ومع هذا، فلا داعي لأن نقلق

إنّها لا تزال من لحم ودم

على شفتيها ابتسامة

وتنظر إلى عصفور فوق سلك كهربائيّ

بعيد

كنتُ وقتها جالساً فوق صخرة

تحت ضوء القمر

يَمضي البحر ليدلف إلى كهف

جاءته منه نداءات غرقى

تمّ نِسْيانهم هنالك

لكنّ البحرَ لم يعدْ من الكهف

لا بالغرقى ولا من دونهم

كنتُ وقتها جالساً على صخرة

أصبّ لي كؤوس نبيذ

وها قد امتدَّتْ أمامَ عينيّ مفازةٌ لا تنتهي

حلَّتْ محلّ بحرنا الجميل

وفي المساء الموالي

تعالى حزننا، نحنُ سكّانَ السّاحل

من صدورنا، غِرْباناً بالمئات

أَنصتوا الآن إليها

إنّها تنعق بسيمفونية مُدْلَهِمّة

في ذِكْرى فقيدنا المَهيب

وهي لن تتوقّف إلّا بعد أنْ

تتشقّق

حناجرها

غرفة ضيّقة

وَقْعُ حذائي على الرّصيف

ينفذ إلى أذنَيَّ، عبرَ نافذةِ غرفتي

إنّهُ الحذاء الهارب من الخدمة

يتابع سيرَه في الخارج

وقدماي تستغربان

هذا العقوق

وثمّة أغنيةٌ تصعد نحوي الأدراج

قادمةً من الشّارع نفسه، ذي البرد

الجريح

إنّها للمغني الأعمى، الذي

يبيتُ في العراء، وعيناه

هما صَنْجاه

أما أنا فقانعٌ بالبقاء في هذه الغرفة الضَّيِّقة

لكن، متى ضجرتُ حقّاً

أركضُ فيها

فتتحوّل إلى بلد كبير

فيه قتلى يصنعون البارود

وكتبٌ كثيرة، وكنوزٌ مخفيّة

في رئات

العصافير

بلدٌ كبير ودائري، حيث الحُزْن

يُزال بالمماحي

وحيث، كثيرا ما يكون الله

هو النّسيم

كوميديا سوداء

هل تعتقدُ حَقّاً يا صديقي مِيرُو

أنّك سبقَ أن كُنتَ

بطّةً بَرِّية في حيَاةٍ سَابِقَة؟

هل فِعْلا تُنَقِّبُ في ذاكرتكَ بَلْ حتّى

في مسامِّك لِتَجِدَ جواباً

عنْ تساؤُلك هذا؟

ثُمَّ بالله عَليك

مِنْ أين جاءتْك هذه الفكرةُ أَصْلاً؟

مِنْ كونكَ، حسبَما تقول، أصبحتَ تَرى

بِرَكاً كثيرة في أحلامك

وتسمعُ صوت البطّ فينتابُك حنِينٌ غريب

وتُثيرُ انتباهَكَ أيُّ ريشةٍ طائرة

مهما كانتْ واهية؟

لكنّك، بهذه الطّريقة، تثيرُ القلقَ في نفسي يا صديقي

وتجعلُنِي دائمَ الشُّرود

وتَمْنَعُ النّومَ عن جفوني

لأنِّي أصبحتُ، عند كلِّ غَفْوة، أرى بنادقَ في الحُلم

ودخَاناً يتصاعدُ أمامي

وكلّما بدا لي موقدٌ إلّا واستثارَ اهتمامي

وكلّما لمحتُ جَمْرةً

أو كومةَ أخشابٍ تَشْتَعِل

تسمّرتْ عليها عيناي...

فهلْ يا تُرى كنتُ في حياة آنفة

قنّاصاً

وحدثَ أنْ قنصتُكَ وأنتَ بَطَّة

وَحَدَثَ أنْ طَهَوْتُ منك؟

آه! إنّكَ تَجعلُنِي أتعذّب

آه! إنّي سأَبْكِي...

نبذة ممّا جرى لِميرو

في كُلِّ شوارع مدينتنا

سُمِعتْ قرقعاتُ مفاصِلِ عابرين

فالشّتاء القارس سبّب الرّوماتيزم للكثيرين

وكان من نصيب ميرو، صديقي الرّسّام

أن تُصاب يداه

وها هو الآن يحلم

أنّه يصعدُ سُلَّماً لا ينتهي

فيما يداه تطولان وتطولان!

يصعد ويبتعد كثيراً عن الأرض

وأمّه يسري الحزن

في مفاصلها المقرقعة

وأنا أحاول أن أواسيها

فيما ننتظر أن يستيقظ ميرو

فلا بدّ أن يحدث هذا

مهما يطل الزّمان

ووقتها أرى ما ستؤول إليه أحواله

وأخبركم!

حُلَفاء

لقدْ أُعلِنتْ علينا حربٌ شعواء

ولسنا الطّرف القويّ فيها!

وفي شوارع مدينتنا رُئِيَتْ تلميذات صغيرات

يتظاهرن بالمَرح وصرخاتُهنّ

تحت رموشهنّ

والمغنّي الذي كان قد عوَّدَنا

على مَرَحه ودَنْدناته

انكمش في زاوية بزقاق مهجور

حيثُ بدأ يتتبّع هَلْوساتِ عِظامِه

كما لو كانت مشاهد

في شريط سينمائيّ!

لكنْ جميلٌ أنْ يكونَ قد جاء لنجدتنا

هذا الفيلق من العميان

الذين يدخّنون وينفثون الدّخان

من عيونهم

وهذه البِركة التي يُقال إنّها

سليلةُ جبلِ جليدٍ مَهيب

جميل أن تكون قد وصلتْ كلُّ هذي الأجراس

وهذي السّمكة التي هي كُبرى

وزيرات البحر

هذه العجوز التي تظهر عادةً في نهاية كلّ خريف

لتكنسَ

الغابات

وهؤلاء الأطفال الشّجعان

الذين أنقذوا عصافير في بِيد

فلكم نحن محظوظون

بحلفاء

من هذا القبيل!

الماضي والحاضِر

المُحاربُ ذو الحِراب، معتليا البرج في ذلك الزّمان

البعيد، كان يقول:

هذه الإجّاصات في تلك الشجرة

هي مصابيح بوّابة هذه الغابة

التي على مشارف مدينتنا.

مساءَ البارحة، جاءتْ عصفورة وأشعلتْها

ليهتدي صغارُها

أثناء التّحليق بين الأشجار

ثمّ مضتْ إلى أعلى البرج القديم

الذي كان يعتليه المحارب قبل

ألف عام.

أمّا المدينة التي كانتْ قريبة من الغابة

والتي كان المحاربُ يقطن بها

فقدْ ساخت، منذ زمن طويل

في طَمي أحلامها

لكنّ الغابة ما تزال في مكانها

والمُحارب، حسبما رواه ابن الأثير

مات قبل قرون

بعد أن بدأ يقذف من جوفه كلّ صباح

بيضاً كثيراً

مسلوقاً

وَساخِناً!

عَين

قَرْيةُ جدّتي: بُيُوتُها تدور حول

صرخة، تَصَّاعَدُ على الدَّوَام من البئر

الَّتي في وَسَطِها. لم يحدثْ

أن رأيْتُ تلك القرية، لكنّي

كنتُ متشوّقاً لزيارتها، بعد أن حَكَتْ لي الجدّة

عن طفولتها في أرجائها، وكيف أنّ

دوران بيوتها كان يجعلُ الطّواقي التي

يعتمرها أهلها

تضيء لهم سُبلَهم في الليالي الحالكة، ويُمكِّنُ

دجاجاتِها

من أن تُقوقئ بالعديد

من اللغات الأجنبيّة.

وفي ليلة بعيدة، كنتُ قد فكّرْتُ طويلاً

في تلك العجائب، ثُمّ أَطللْتُ من نافذة، فرأيتُ

دمعة جميلة

في عين أليفة.

تلك كانتْ عينُ الجدّة. لقد أُغْمِضَت

منذ سنوات. لكنْ، أكيدٌ أنّها الآن

تَجُوسُ في غابات

وفي قُرىً عجيبات

وتتتبَّع مُغامرات

تقوم بها جِنّياتٌ في حكايات

يغذُّ السّير في المرآة

يا لَتوتّر حاملِ المظلّة الشّاحبِ القادم بسرعة.

إنّه يحثُّ الخطى في اتِّجاهِ رجلٍ طويلٍ ومُحتقِنِ الوجنتين،

واقفٍ أمام مرآةٍ، شِبه نائم، ويُدخّن.

حاملُ المظلّة يزيدُ من سرعته ويتذكَّر المرأة

التي كانتْ عشيقةَ محتقِنِ الوجنتين:

إنَّها مَاشَا الجميلة التي غرقت في ذلك البلد البعيد

وهي الآن قابعة ولا شكّ في قعر نهر الفولغا.

ويدندن الرّجل الطّويل المحتقن الوجنتين

بقصيدة كان قد كتبها عن موت عشيقته الرّوسيّة.

إنّه واقف أمام مرآة الحمّام، في بيته بكازبلانكا

يُدخّن ويَحلق ذقنه، ويرنو

إلى حامل المظلَّة الذي يغذُّ السّير نحوه في المرآة

والذي لم يكن إلا هو نفسه، قادماً

نحو نفسِه

من شتاءٍ روسِيٍّ قديم!

في هذه اللحظة بالضّبط

في هذه اللحظة بالضبط، حسبتُ أنّي متّ

لكنّ روحي

التي، منذ دقائق،

غادرتْ، حقّاً، جسدي

لَمْ تلتحقْ بالسّماء، بل إنّها صعدتْ إلى قِمّة النّخلة

التي أراها من نافذتي!

انْزلي، أيّتها الرّوح القلقة،

انزلي فوراً

وعودي إلى حيثُ كنتِ!

هكذا تحدّثتُ إليها، ثمّ أَضَفْت:

هيّا،

كفاك عبثاً!

أُفَكِّر بطريقة سِرّية

رغْمَ النّظرات المُشَجّعة الّتي

تَكيلُها لي عيونُ النّبيذ كلَّ مساء

والكلامِ الجميل الذي

تحملُه إليّ رسائل الأصدقاء

فحياتي أصْبَحتْ تُضْجِرُني

أطِلّ من نافذة

فأسمع أصواتاً خافتة وأقول

لنفسي: لعلّها أنفاس

الشجرةِ اليافعة التي تغفو

جنب باب الحديقة

ثُمّ تبهَرُ عينيَّ التماعاتٌ تتوالى

هنالك في البعيد فأفكّر:

ربّما هذه الومضات

تصدر عن الكاميرا التي

يلتقطُ بها جاري النَّهرُ صُوَراً

لعشيقاته المُتهاديات

تحت رذاذ المطر

أَرَاهُنّ الآن من نافذتي وأبدأُ في عَدِّهِنّ

هكذا من دون هدف

ثُمَّ أقول في سِرّي: هذا النّهر

دون جوان حقيقيّ

أقول ما أقول وأفكّر

بطريقة سِرّية تماماً

لأجعلَ من حياتي صديقةً

ساحرةً قَدَماها من مرجان

ولها رموشُ الكمنجات

هذا ضروريّ لئلا تنقذف سِهام

من سُرَرِ الكراكيّ التي تحلّق

الآنَ فوق رأسي

فيتفتّقَ جلدُ هذي الصّبيحة ولا

يبقى لي سوى

أَنْ أرفوَه

بِعُرُوقِي!

فهرس

أَعمال شِعريّة (1990-2017)

أعمال شعرية (1990-2017) 4

1- على دَرج المياه العميقة 5

رفيف أجنحة يُضرم حقولاً 6

تفاصيـــل الدَّهشـــة 7

حرائق 11

أمـاكـن 12

شُرْفـــة 14

مـــراودة 15

أَصْفِقُ نوافذ النّوم 16

مساءات ماطرة 19

قَبـــر 20

أشجارٌ غجريّة 21

خلف نافذتي... 23
معـــادلات 27
على رصيف مقهى 28
مرثيَّـــة 29
خيمةُ الغبــار 30
عصــافيرُ_سكْرى ....,.. 32
أحلامٌ تُهدهد أزهاراً 33
نمـــال تهزج... 35
بدأتْ هذه الثُّلوج تصدأ 36

2- محفوفاً بأرخبيلات 37
ديــبـــاجة 38
أبـديَّـة 39
رَحـــيـــل 41
هـــامـشٌ لصهـــيل فنــار 42
أقبـل الفجـــر 43
أمسيـــة 44
غرقى 46

مُهِمَّـــة 48
طويلاً عِشْتُ كَما... 49
مـسرّة 51
نـــار غريبـــة 53
بــراءة 55
حَـاشيـــة 57
ذِكْر مـا جرى 58
ذِكْر ما جرى (2) 59
كيْ لا ننـسى 60
كان صباحٌ 63
ريـــف 65
شفـــافيـــة 66
يُفاجئني المطر 67
شَكوى 68
ألَق 69
قَـرار 71
مصيـــــر 72
فـي حديـــقـــة الغَلس 73

صـــعود 74

للشتاء أسماؤه... 76

صلـــيـــل 78

رقصـــة 79

3- راية الهواء 80

الضّـحـك 81

أمـام بــاب الحـُبّ 87

الـعـيــن 89

أكثـــر زرقـــة 93

بلمسة من أكُفِّ النسيم... 95

الأمطار تَحَصَّنَتْ 97

4 - فراشة مِن هيدروجين 104

كوكبٌ مُعربد... 105

لفائـف سحريـة (1) 106

لفائف سحرية (2) 107

لفائف سحريّة (3) 108

تــرْســو المُــرَبّــعات 109
حتّى الصّحْراء 111
في ربيع العمر 112
أصنعُ سهاماً 114
ليتَ لي ......,,.. 115
حــيــرة 116
ذِكْــرى 118
بِحنين 120
البِــئــر 121
رســـالــة إلى نفسي 123
زمنُ القَتَلَة 125
اكــتــئــاب 127
ما إنْ تقفَ أمام كــهــف 130
كُــنْــتُ مــن أبــطال هومــيروس 131
بــمــزْمــاري 132
يــوتــوبــيـــا 134
وقائع 137
حكاية 141

عـــــيـــــــاء 143
وقفتُ إلى جانب البئر 145
التقيتُ بالحصان 146
والتفاحة في يدي... 147
انتظار 148
إنْ كُـنْـتُ مـنْـذُ الصّـبـاحِ... 151

5-رجل يبتسم للعصافير 152
إهداء 153
القِسم الأوّل: أحقن عروق الدّراجة بالنّيكوتين 154

جَدّ -1- 155
هجرة 157
دموع القداحة 160
منذ دهر 164
على شاطئ... 165
مروحة 166
مقادير مجهولة 168
عليّ أن أَطْمئنّ 170

من نصائح جدّي ومأثور أقواله 173

جدّ – 2 - 179

القسم الثاني (من "رجل يبتسم..."): تربية عاطفية... 188

ربّما يكون لي حِصان 189

أُمسك بمقود الركبة 196

سينما 197

ريح قرصانة 200

طقس رائق 202

داهمني الصّباح 204

نصر مؤكّد 206

سأعرّج على البار 208

قرب السناجب 211

رسالة 214

احتفال 216

5-عيون طالما سافرتْ 219

يَغمسون رأس المهرّج.. 220
قُبيْل الغروب 223
بَحر أسود 225
أسلاف 226
لا يُخِيفُنِي إِلَّا شيْءٌ واحِد 228
نُنزِل قِرْميداً من العربة 230
أعزفُ على هَرْمونيكا خياليّة.. 233
أصعدُ مِن قعرٍ بعيد 237
قَدَمٌ مَنْسِيَّة 239
أنا الآن 240
يَوْمَ جِئْتُ 242
يا مُقَشَّرةَ الدِّهان 244
حميميّة 247
شؤون عائليّة 249
بِذِرَاعَيَّ اللتَيْنِ طَالَمَا... 251
سأَسْحبُ من دخانها وأنفث 253

شمسٌ صغيرة 255
وأصبحتُ سيّد السّاهرين 257
وجهكِ يا غريبة 259
المُعلَّمة تُزَيِّنُ بَدلتها 261
خُطوات 262
أتهيّأ للإبحار 263
غريبٌ أَمرُ هذا الحقل... 265
قَرير العين 266
حانة 267
خِرفان الليل 269
عَامِلُ الكَهْرَبَاء ذَاكَ وَزَوْجَتُه 270
أهذه هي الغرفة؟ 272
الجسرُ السّاخنُ ظَهرُه 274
كنتُ لِلتَّوِّ قدْ وَصَلْتُ 276
كان يمكنكما أن تُشَكِّلا زوجاً رياضيّاً 278
وأنتِ بلباس البحر 280
غريبٌ في تلك المدينة 282
رموز للصّيرورة 285

له ذاكرةٌ حَيّة 287
يتمشّى على رمل قديم ....,, 289
العابرة 291
بسبب أوراق ميّتة 292
كنتُ وقتها جالساً فوق صخرة 294
غرفة ضيّقة 296
كوميديا سوداء 298
نبذة ممّا جرى لِميرو 300
حُلَفاء 302
الماضـي والحاضِر 304
عَين 306
يغذُّ السّير في المرآة 308
في هذه اللحظة بالضّبط 310
أُفَكِّر بطريقة سِرّية 311

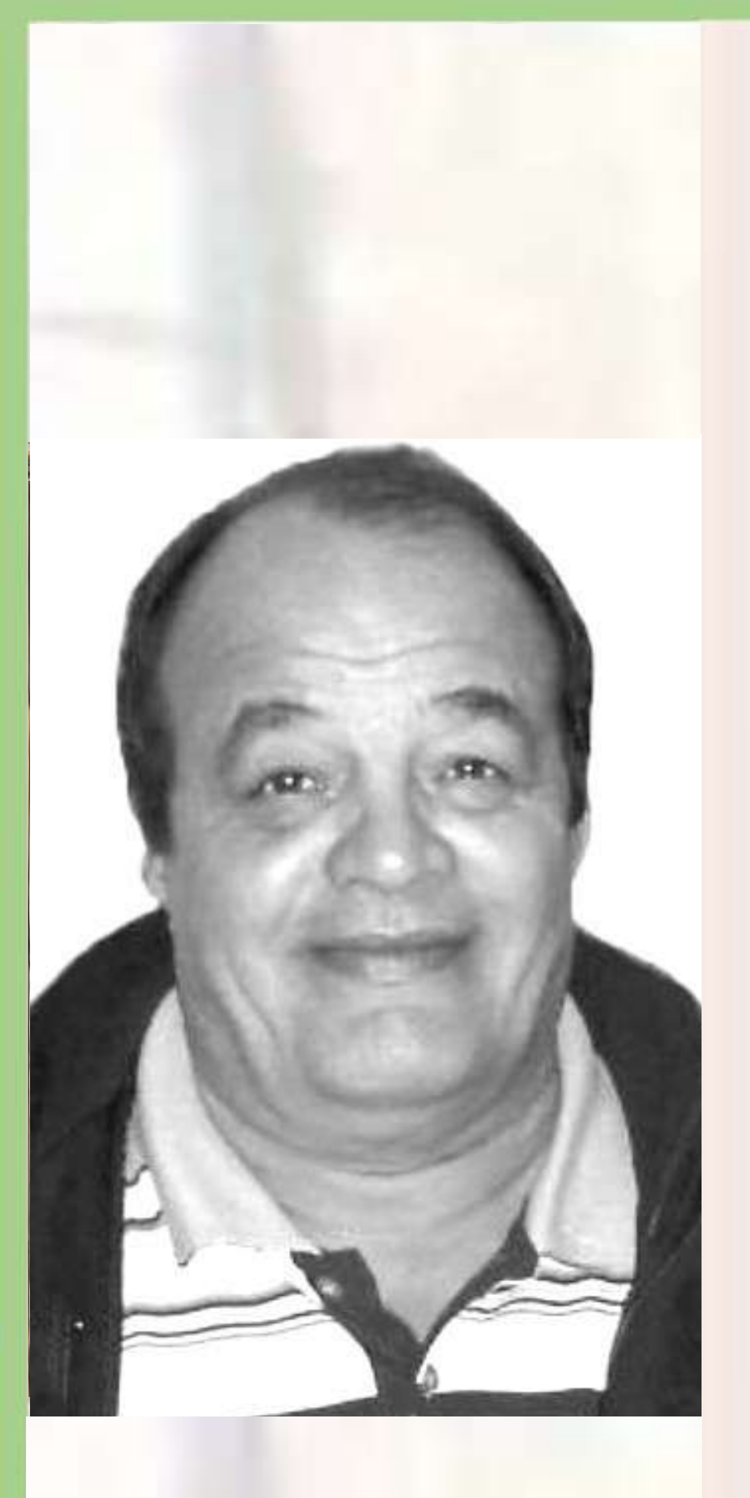
رابط مُدوّنة مبارك وساط:

[حِبر- أوراق مبارك وساط]

أعمال

شِعريّة

(2017-1990)



مبارك وساط

منشورات
حِبر